عذارى أوراق التوت

LEVANT

عنوان الكتاب: عذارى أوراق التوت، رواية

الكاتب: سعدية عبد الحليم

الطبعة الأولى: 1441هـ - 2020م

© جميع حقوق الطباعة والنشر الورقيّ والإلكترونيّ محفوظة

مركز ليفانت للدراسات الثقافيّة والنشر

ب ض: 03- 11- 520- 00408- 5- 022

س ت: 9882

44، ش سوتير، أمام كليّة حقوق جامعة الإسكندرية، دور3، الإسكندرية، مصر

موبايل: 01030036491 هاتف: 034830903 - 002

بريد إلكتروني: levantegsy@gmail.com

موقع إلكتروني: www.levantcenter.net

رقم الإيداع: 15603 /2020

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6815 -30-8

التدقيق والإخراج: القسم الفني في مركز ليفانت، د: هانم العيسوي

تصميم الغلاف: إيهاب رشدي

عذارى أوراق التوت

رواية

سعدية عبد الحليم

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية

2020

إهداء

إليهم..

الذين تأخذهم الصدف

إلى حيث تنتظرهم الأسرار والخبايا

على دروب الصعاب

تعليق قبل البدء

بقلم الشاعر والناقد عبد المنعم كامل

****

ليست هذه دراسة نقدية، وليست تفسيرًا لهذا العمل الأدبي الجميل، وإنما هي تعقيب على حال نفسية تملكتني بعد قراءة الرواية، غير أنها في نفس الوقت ليست مجرد انطباع، فقد قرأت الرواية مرات، وانكشفت أمامي طرقات الحكايات ودهاليزها؛ لأنني شعرت بتماس كبير مع الشخصيات والأحداث ومواقف الحياة المختلفة .
إن السرد القصصي في حياتنا شيء أكبر من التسلية أو خلق المتعة العقلية والروحية العابرة، ففي التسلية والمتعة العابرة نهرب من شيء ما، أو نتخلص من شعورنا بالملل ، وليس ذلك غاية السرد في أي أدب عظيم، السرد يحاول أن يبعث في أرواحنا جذورها التي ذبلت، ويجدد في وعينا ما نعرفه عن أنفسنا وعن العالم، إنه يؤرخ لأرواحنا وعقولنا ومنعرجات خيالنا في لحظات عشناها، كما يكشف عن حدود أمانينا وتطلعاتنا اليوم وغدا، ولهذا بات السرد عملا صعبا وخلاقا وعظيم الفاعلية.

قرأت الرواية فإذا بالكاتبة تضعنا في تقنية مختلفة كثيرًا عما عهدناه في الرواية الكلاسيكية، إذ غادرت تقنية الزمن القديمة التي كانت تضع الأحداث على خط مستقيم يتجه من الماضي إلى الحاضر، وتتحرك فيه الشخصيات كلها بحيث تسلم الواحدة منها إلى أختها في سلسلة زمنية متصلة الحلقات على الخط المستقيم، لم تلجأ الكاتبة إلى هذه التقنية، وإنما لجأت إلى تقنية الدوائر الزمنية، فهي تنطلق من الماضي باتجاه الحاضر وهي تسرد حكاية شخصية واحدة من شخصيات الرواية بأسلوب

المتكلم، ثم تتوقف فتلتقط شخصية أخرى قد تكون نقطة البدء في ماضيها أقدم أو أحدث من الشخصية الأولى، عبر ضمير المتكلم أيضا، ثم تلتقط شخصية ثالثة، وهكذا، وخلال السرد تتلاقى الدوائر وتتقاطع في تنام مستر ومتدفق، ثم تتداخل الدائر فيذوب بعضها في بعض، دون أن تفقد أية دائرة منها ملامحها التكوينية الفارقة، ففي كل دائرة تلقي لنا شخصية المتكلم، سواء كان رجلا أو امرأة، وسواء كان شابًا أو شيخًا، عبر سرده ما يشبه الاعتراف المقدس، لا يقف عند حد اجترار الذكريات، وإنما تبني اللغة صراعات الشخصية من خلال عناق أخاذ بين فعلي الماضي والمضارع في محاولة لإبراز الخفي من كل ذات نلتقي بها، فنرى العالم من وجهة نظرها، ونرى العالم وهو ينمو أو يضمحل، ونرى أعماق المتكلم وتداعيات الأحداث على وعيه وهي تتغير متسارعة كدفقات السيل .

سيقف القارئ طويلًا عند كل متكلم، وسيقرأ زمنه الخاص، وسيتعرف على وقائع حياة كل شخصية في مرحلة تاريخية تدور في النصف الثاني من القرن العشرين والعقدين الأخيرين منذ مطلع الألفية الثالثة حتى لحظتنا الحاضرة، ذلك أننا نلتقي بشخصيات حاربت وانتصرت في سبعينيات القرن الماضي، وشخصيات تعاني متغيرات المكان في العقدين الأخيرين، فأما الذين حاربوا وعبروا وانتصروا فقد كانوا يحملون عبق ماضيهم وخصوصيته، هذا الماضي الذي لا بد من أنه بدأ في خمسينيات القرن العشرين، وسيتعرف القارئ على تداعيات انتقالهم بين أبنية اقتصادية وسياسية ومناخات عقلية وروحية متباينة، وسيقرأ ما أنتجه الانفتاح فيما بعد الحرب من أثر نفسي مدمر وثقيل، وسيمكن للقارئ أن يمسك بتلابيب الحقائق التي لا يجدها مطلقًا في كتب التاريخ.

إن من مهام الرواية أن تؤرخ على نحو من الأنحاء، تؤرخ الواقع النفسي غير المرئي لعين الفيلسوف أو أستاذ التاريخ، تؤرخ لمشكلات الذات والمجموع من الداخل، هذا الداخل الذي لا يراه أستاذ التاريخ قط.

لقد كان للتحول الرأسمالي في عصر الانفتاح أثره الكبير على حياة الناس، وكان هذا الأثر سلبيًا فيما يتعلق بالطبقة الوسطى والطبقات الفقيرة، إذ خلخل الضغط المادي علاقة الإنسان بالمكان ووجه له ضربة في مقتل، ترك كثير من المصريين بلادهم وسافروا من أجل العمل، وكان لذلك مردوده السلبي على العلاقات الأسرية الضيقة والعلاقات الاجتماعية الأوسع، واضطر حاملو الشهادات العليا والمتوسطة إلى قبول أعمال لا يعرفونها كالبيع والشراء في الأسواق العامة، وحمل بضائع الناس على أكتافهم أو عربات النقل المتدنية، بل اضطر عدد منهم إلى قبول الأعمال الرخيصة من الوجهتين المادية والأخلاقية لكي يقاوم شبح الموت، ولم يتوقف التأثير السلبي على حاملي الشهادات، بل تجاوزهم إلى المحاربين المنتصرين؛ فأفقدهم الشعور بالقيمة، وأفقدهم الشعور بأي مضمون حقيقي لفكرة المقاومة من ناحية ومعنى الوطن من ناحية أخرى.

لقد رصدت الرواية منحنيات متعددة في حياتنا ربما يكون تأملها بابا نكتشف من خلاله الأسباب التي أوصلت المجتمع المصري إلى ما وصل إليه من متناقضات جمة على المستويات العقلية والروحية والمادية التي لم تتوقف عند شريحة واحدة بل طالت كل فئات المجتمع في هذه العقود الثلاثة الأخيرة على الأقل .

لا أريد أن أستطرد فأفسد على القارئ اكتشافاته الشخصية وهو يجري مع الراوية في سردها الممتع، ولما كان هذا تعقيبًا فحسب، فقد أردت أن أبتعد فيه عن كشف شخصيات الرواية أو حتى الإشارة إلى أسمائهم،

وإنما أدع القارئ يتعرف عليهم كما قررت الروائية نفسها في كلمتها قبل الدخول في زمن الرواية.

عبد المنعم كامل

فاتحة السرد

لحظة فارقة في حياتك، تلك التي تلقيها الصـــدفة أمام عينيك، لا ذنب لك فيما حدث، ولكنك ستحمله كما يحمل أبطال التراجيديا مآسيهم، ويعيشون حياتهم في غرائب أقدارهم.

دعوني أحدثكم عنهم هؤلاء الذين تلقيهم الصـــدفة في طريقي، فتفاجئني حكاياهم، لأجد نفسي بين تشابكات عقدهم، هل كنت أبحث عنهم، وأنا أسير بذهن شارد، وخيال متوثب لالتقاط خيوط الحكايا.

أنا تلك المرأة التي أنهكتها أحداث الحياة، ولست وحدي هكذا، نحن كثيرات وإن اختلف التلقي، فأظل واحدة من اللاتي يشتبكن بزحام الحياة والناس.

أنا هنا لأكتب لكم عنهم وعنكم، دعكم من تنظير النقاد وأحاديثهم، لا تلتفتوا إلى لغوهم عن موت المؤلف، نحن نعيش وإن كتبنا كلمة النهاية في آخر سطر، نكتبها وننظر لكم بخبث، الحقيقة أننا نخدعكم، حين نضـــع آخر جملة في الرواية بعد أن نكون قد أنهكناكم ركضًـــا ومتابعة، كي تصـــلوا إلى حلول ما تظنونه عقدًا أصـــلية وفرعية بينما نبقى نصل آخر سطر بعقد أخرى.

لســنا وحدنا نتحلى بداء الخبث في تتبع الحكايا، أنتم أيضًــا خبثاء حين يدفعكم فضولكم؛ لتتبع مصائر ساكني الحكايا، دعوني أقول لكم: أنتم تبحثون عن أنفسكم في حكايانا.

ربّما لا تدركون أنّ عقدًا قد أُبرِم بالفعل فوق هذه الصــفحات، وأنكم لا تملكون فســخ هذا العقد، مادمتم تســيرون فوق الســطور، وتتبعون انحناءات السرد وتشابكات العقد.

لعلّني لا أُفشــي ســرًا لو قلت لكم:إنني لو لم أجدهم لاصــطنعهم خيالي، وليسوا بعيدين عنكم، ولست بعيدة عنهم، هم بعض من أسراري وتفاصيل من غرفة تذكاراتي.

على الطريق

الشارع الذي نمرّ فيه هادئ ومريب،لا تسمع فيه إلّا خشخشة أوراق الشـــجر، وأصـــوات العصـــافير العائدة لأعشـــاشـــها، ودبيب خطوات المحبين، وقليل من المـارة، وهمس بين الثنـائيـات لا تكـاد تتبين منـه حرفًا، ومشـــاهد ممارســـات تقف على حافة الفعل الفاضـــح في الطريق العام..أنا والتوتر الذي انتابني حيال تلك الســـيدة، التي بدلت مســـار وجهتها، حينما أشارت لي على الطريق، لندخل ذلك الشارع، الذي يمر بين البيوت والفيلات الهادئة قريبًا من النهر، وأبلغتني أنها ســـتعود لوجهتها، ريثما تنتهي من إنجاز شـــيء ما هنا، وأنني – لا شـــك – سأتقاضى أجرًا نظير التوصيل والانتظار.

قليلة هي سيارات الأجرة، التي تمر في تلك الشوارع الهادئة والمغلقة على ســـكانها من طبقة ما قبل ظهور المنتجعات الجديدة؛ والتجمعات السكنية المترفّعة عن القرب من زحام العامة، البعيدة عن وسط المدينة بضجيجه.

بعد سـير أمتار قليلة من بداية الشـارع طَلَبتْ مني التوقّف بجانب الطريق المحفوف بالأشـجار، تَوَقَفْتُ..فأخذتْ حقيبة كانت معها، ونزلت وأشـــارت لي أن أنتظرها قليلًا، حيث توقفنا، وتحركت على الرصـــيف جانب السيارة، حتى اختفت خلف جذوع الشجر.

كنت أمر بالقرب من محطة (مترو الأنفاق) بحي الدقي، حين أشارت لي تلك السيدة، و ركبتْ معي بعباءتها السوداء الرخيصة والحجاب الملون الذي يغطي رأسها، لم يكن وجهها المألوف يفصح عن شيء سوى أنها سيدة من سيدات الطبقة الشعبية في بداية عقدها الثالث.

اختارت أن تجلس في المقعد المجاور لي، ظلت طوال الطريق تختلس النظر إلي، وأنا أحاول أن أنشغل بالقيادة.. راودتني بعض الظنون، وتقلّبْتِ الاحتمالات في عقلي، لكنّني ومن كثرة ما قابلت في فترة عملي كسائق سيارة أجرة، كنت أنحّي بعض الظنون، وأتشبث ببعضها، و كلما حاولت التغاضي عن نظراتها لمحتها تحاول التمعّن في وجهي كمن يتبيّن ملامح وجه يعرفه، أو ربما تحاول الاحتفاظ بتفاصيل الوجه في الذاكرة، راودتني مخاوف شتى، وأسئلة تدور في ذهني وتسطر انفعالاتها في أسارير وجهي.

ترى ماذا وراء هذه المرأة من أسرار؟!

فأنا على يقين، أنّ وراء كلّ سيدة سرًا، حتى لوكانت تلك السيدة هي (سيدة أم الغايب) التي تفترش ركنًا على ناصية شارعنا؛ لبيع الجرجير والليمون، ونحن لا نعرف ولدها الذي تكنّى به..حتى لو كان لديها ولد

فلماذا تكنى به غائبًا! ولا نعرفُ لها أسرةً أو بيتًا تعود إليه؛ حينما تنهي يومها حاملة ما بقي من أشيائها في سلة على رأسها.

كلهن يحملن أسرارًا في حقائبهن وأكياس صدورهن، هكذا علمتني التجربة،وهكذا فاجأني الواقع، بما لا أتوقّعه من المحيطين بي، بل من ذوي القربى وصلات الدم، حتى بتُّ أنا من يحتاج تفحص وجوه النساء، والبحث خلف سيرهن لعلّني أصادف جزءًا من تاريخي.

أما تلك السيدة، التي تثير قلقي حاليًّا،لا أعرف سببًا لنزولها في شارع هادئ حاملة حقيبة سفر صغيرة، كما تركت حقيبة يدها على المقعد بجانبي، لعلّ أول ما يراودني بشأنها.....!

ماذا لو أنها في مهمة وتستخدمني للتستر والاحتماء؟ ربما نزلت لتسلم حقيبة بها أشياء يعاقب عليها القانون.

أشعلت سيجارة، أنفث منها دخان ضجر الانتظار والقلق، الذي يأتي في نهاية يوم من العمل بين أناس مختلفي الأهواء والأشكال، لم أكن قبل عملي كسائق سيارة أجرة أتخيلهم.

مرت لحظات حتى فاجأتني إشارة صفير هامس، تصدرها السيدة التي نزلت وتوارت خلف جذع شجرة في أثناءِ انشغالي بإشعال سيجارتي، كرّرت صفير النداء الهامس،أشرت إليها، فخلعت عباءتها

السوداء، وطوتها وبدت مرتدية فستانًابنفسجيًّا منسدلًا، يحدد تفاصيل جسدها الملفوف بلا سمنة، كما خلعت حذاءً مستويًا، وانتعلت غيره ذاكعب عال، ثم كشفت شعرها، وحلت وثاقه، فغطّى كتفيها، بدا أسود مجعدًا وطويلًا، أخرجت من حقيبتها شالًا فردته، كنت أنا قد ترجّلت من السيارة بتوجس إثر إشارتها، فطلبتْ أن أتقدّم منها، اقتربت، وَضَعتْ الشال بين يديّ، وطلبتْ أن أساعدها في ارتدائه، بتردّد وضَعتُه على كتفيها، وأنا مأخوذ بما تفعل، حائر بين رغباتي وظنوني، ماذا تريدُ مني هذه المرأة؟ هل هي امرأة تتصيد الرجال على الطريق؟ هل هي لصة تتحايل كي تحصل على مبتغاها؟ لا أدري لماذا لا أعترض! أعود نحو سيارتي..ولا أدري لماذا نجحتْ في لحظاتٍ أن تحرّك بي نوازع ذكورتي، لا شيء يمنعني سوى مخاوف تكبّلني وبعض من وصايا حملتها عند بداية عملي كسائق أجرة.

- اعدل لي الشال الله يخليك
- .....

بيدٍ حائرة حاولت مساعدتها، ضاقت ببدائيتي الرجولية في مساعدة أنثى، رمقتني بنظرة ألقت بي بين براثن الهواجس المجنونة والخوف المتعقّل.

التوجس، الحيرة، الارتباك، مشـــاعر تبدو بســـيطة أمام ما يتملك شاب في مثل تلك المواقف.

عدلت من هيئتها قدر اســـتطاعتها، والحقيقة أنّها حتّى لو تركت الشال متهدلًا بعفوية، ما نقص من جمالها شيء، وربما ازداد غموضًا، تحركت ناحية الســـيارة جلســـت مكانها، وعدت إلى مكاني خلف مقود السيارة.

تنفّســـت ارتياحًا لانتهاء الموقف الغامض المثير، وتعجلت التحرك من هذا المكان داعيًا الله أن نمضي قبل أن تداهمنا المفاجآت.

تلك الشـوارع الهادئة المحفوفة بالأشـجار على الجانبين تعاند جمال الطبيعة فيها، حين تصـــبح مأوى للهاربين من أعين الملاحقة والراغبين في انتهـاز الفرص وابتزازهم، وبعض ممن يـداهمون الســـــائرين والمتوقفين،ويسلبون أموالهم وممتلكاتهم من هواتف ونقود وسيارات.

ومن المعتاد في تلك الأماكن أن الشـــرطة– أيضًـــا – تداهم هؤلاء الذين يسيرون في تلك الشوارع، وهم يمارسون الحب، ويتسكعون على الأرصفة، أو يستترون بالسيارات، أو خلف الأشجار، من يضمن لي ألا أقع فريسة لأي من الفريقين، وأنا لا أعرف ماالذي تخبئه تلك السيدة.

نبهتها لخطورة وقوفنا طويلًا في هذا المكان، هزت رأســـها بإيماءة وطلبت فتح ضـــوء الســـيارة الداخليّ، بينما كنت أبدأ خطوات التحرك، أخرجت مرآة من الحقيبة وبعض أدوات التجميل، وانهمكت في وضـــع المســاحيق والألوان على وجهها وشـفتيها وجفنيها، كانت تبسـمل وتتلو دعوات لم أتبينها.

المسافة التي ستقطعها إلى وجهتها ليست قصيرة بحساب شوارع القاهرة المزدحمة مهما اختصرتها الكباري والأنفاق، اختلست نظرة إليها، بدا وجهها غجريًّا لونته المساحيق الرخيصة، ولا أدري كيف أضفَتْ تلك الألوان على سيماء وجهها مسحة أنوثة متفردة.

كنت أود أن أحدثها، لكن شـــعور القلق والارتياب الذي ينتابني حيالها، يجعلني أقف في منطقة وسـطى محيرة بين الفضـول والخوف، بين الإعجاب والارتياب.

اليوم الأحد، ومن حسـن الحظ الذي لم يحالفني كثيرًا في حياتي أن الشوارع ليست مزدحمة كعادتها، المرأة التي تجاورني في السيارة تستنفر الحواس، وأنا أحاول كبح جماح غرائزي، حتى نسيت المخاطر والشكوك التي سـاورتني، وبدأت أسـترق النظرات إليها، وحملني خيالي المشـحون على أســـرة الغرائز رويدًا رويدًا، كنا نعبر النفق الطويل الفاصـــل بين وسـط المدينة وشـرقها، نسـيت حينها كل ما حَمّلني به أبي من وصـايا

حين سلمني هذه السيارة لأعمل عليها، وما قصّه عليّ من أسرار المهنة وشقائها.

كأنّ العبور تحت نفق يشـكّل فوقك نصـف قوس يحتويك، وكأنني منقول عبر برزخ الشـهوات، الصـمت والرائحة النفاذة لعطر رخيص ومستفز، وألوان كلما مررت تحت ضوء تفتحت كزهرة دوار الشمس، ثم الوقت المترنّح سـكرًا، ويدي التي كلما مددتها لتبديل السـرعة نقلتني لمشـاعر جامحة، مهما تحصّـنت منها بكل ما حملت به من مواعظ ووصايا تقفز حواجزها، وتنتقل إلى سرعة أعلى.

دفعني شـيطان الحواس، وأنا أدفع ناقل السـرعة لاجتياز مرتفع الطريق، أن أجرب التلامس الذي يبدو عفويًا، ظلت المرأة على هدوئها الغامض، كررت الفعلة في المهبط باقتراب أكثر، اشتعلت حواسي كلها، وددت لو ضممتها، لو اعتصرت ضلوعها، وأنا أغوص في قبلة انتقال من سـرعة لسـرعة أكبر، بدت كمن يغوص في أحلام اليقظة، التفتُّ نحوها لترى عينيّ، وهما تفيضـان رغبة، بادلتني نظرة بنظرة، ذابت الوصـايا كلّها، وتبلورت فكرة واحدة، ماذا لو بدلنا المسـار، إلى حيث يعيش محمود زميلي منفردًا، رفعت هاتفي أطلب محادثته، غافلني شاب متهور يتحرش بنا على الطريق وأنا بين القيادة والبحث عن الرقم، مرّ جانبنا يركب دراجةً نارية تطلق صوتًا مخيفًا، كان مسرعًا حتى كاد أن

يصـطدم بنا، لحظة فارقة تلك التي انحرفت به قليلًا لنتفادى تهوره، وأنا أنزل بناقل الحركة لدرجة أقل، ويمضي هو مسرعًا؛ لنفيق من خيالاتنا.

لفّنا صـــمت طويل، عبرنا الشـــوارع المتصـــلة طوليًا إلى مصـــر الجديدة، اقتربنا من المكان المقصود، ميدان تريومف، أخرجت ورقة من حقيبة يدها وهاتف صـــغير قديم، طلبت أرقامًا، وتحدثت بهمس، ثم سـألتني عن الشـارع الذي نجتازه، ثم بدأت توجّهني يمينًا ويسـارًا، حتى توقفنا أمام بناية من العمائر القديمة، نزلت تاركة حقيبة الملابس التي بدلتها، نبهتها لها، فتوقفت خارج الســـيارة تدفع أجرة التوصـــيل وهي تحدثني.

- خليهم معاك أنا بايتة هنا الليلة وبكرة هتعدي ترجعني على الساعة تلاتة العصر.
- .....

قرأت في عيني اســـتفســـارًا متعجبًا، ما الذي تأتين هنا من أجله وتبيتين ليلة؟!

لو لم تكن قد اســـتعدت للموقف بالتجميل، كانت ســـتفتح أمامي احتمالات أخرى، لكنّها لم تتركني لظني، بل أكدته بإيماءة من رأسها.

- صحيح، تفكيرك صح ما تخلبطش نفسك بس أنت، وأدعي لي

- هاه
- أنت اسمك إيه؟
- حازم
- أدعي لي يا حازم إني أعجب الراجل اللي أنا طالعة له عشـــان يكافئني كويس
- أدعيلك؟!
- أيوه أدعي لي، هو أنت فاكر أن الدعاء بالخير ما يجوزش علينا، لا طبعًا يجوز ونص
- ليه يعني؟!
- عشـــان احنا اللي شـــايلين زبالة الدنيا دي وناســـها على راســـنا وماشيين من غير ما نشكي، أدعي لي بس أنت إن ربنا يحبب فيا زبون الليلة، وبكره تيجي تاخدني من هنا مجبورة الخاطر الســـاعة تلاتة العصـــر، لو عدت تلاتة وربع ومنزلتش بلغ حد من اللي يرد على رقم من الأرقام دي...يلا سلام

ناولتني ورقة مكتوب فيها رقمين لهواتف متحركة، واندفعت صـــوب الباب صعدت درجات السلم تجاه المصعد، واختفت داخله.

دفعتُ ناقل السرعة لأول التحرك، وتلعثمت على شفتي جملة (بإذن الله) المعتادة في كل الوعود القادمة، سرت عبر شوارع مصر الجديدة، لا أدري من أين إلى أين حتى استوقفني شاب بصحبة فتاة.

ركب الشاب في المقعد المجاور لي وركبت الفتاة في المقعد الخلفي، وطلب الشاب توصيلهما إلى مصر القديمة.. وطوال الطريق لم يتحدثا بكلمة، لكنني استشعرت بكاء الفتاة من كثرة استخدامها للمناديل الورقية وصوت تنفسها،أما الشاب فبقي صامتًا بحزن.

حين اقتربنا من وجهتهما، ناولته الفتاة من فوق كتفه منديل ملفوف على أشياء، أطبق كفه عليها بعصبية، ولم يلتفت نحوها، حتى وصلا إلى وجهتهما، ناولني الشاب أجر التوصيل، ودخلت الفتاة باب البيت القديم الذي توقفنا أمامه، ومضى الشاب مبتعدًا.

أسندت رأسي المشحون بالانفعالات على عجلة القيادة، ورحت في إغفاءة شرود، أفقت على يد فوق كتفي توقظني.

- العباسية يا هندسة

أشرت له بالموافقة، فركب رجل مهندم، جلس بالمقعد الخلفي يحسب أرقامًا بصوت مسموع ويعيد الحسبة مرات، ثم يجادل نفسه ويكرّر أرقامًا أخرى، في البداية ظننته يتحدث بالهاتف، ألقيت نظرة من خلال المرآة، فوجدته منهمكًا في أوراقه، والهاتف بيده اعتقدت أنه يستخدمه لمراجعة حساباته، أصابني توتر وملل من كثرة تكرار الأرقام، الأرقام تثير أعصابي وتكدّر نفسي، هذا الكدر الذي تركته خلفي، منذ أنهيت خدمتي العسكرية، تكرار الأرقام، كالوقوف الطويل محدقًا لعصا مغروزة

في الأرض، كالاستماع لدقات متكررة بنفس الإيقاع، زاد توتري وقررت أن أنهي الموقف، أخذت الجانب الأيمن من الطريق، وخفضت السرعة، ثم توقفت وأشـــرت للرجل أن ينزل، رمقني بنظرة غريبة، ونزل من دون أن يدفع الأجرة، ولم أطالبه بشيء،بدأت أتنفّس بعمق؛ لأستعيد هدوئي، حتى استرحت قليلًا، وقررت أن أنهي عمل اليوم، وأعود لِألقي جسدي على فراشي، ومنذ تذكرت الفراش قفز إلى مخيلتي طيف السيدة، التي تركتها في مصر الجديدة، لأعود إليها في الغد، وأنا لا أدري هل سأفي بوعدي أمام غموض حالها، أم أتركها وشـــأنها، هذا أمر يحتاج إلى تفكير متعقّل وهادئ.

أما الآن، فلا رغبة لدي سوى بالتوقف عن حمل المزيد من الناس، والســـير وَفق رغبتهم ووجهة وصـــولهم، أتعبتني حوادث اليوم وتوتراته واشـتعال حواســي وانهيارها وخيالاتي الماجنة، التي دفعتني للعودة إلى فراشي.

أنا حديث العهد بالعمل كسائق سيارة أجرة، في كل يوم ألتقي وجوهًا و طبائعَ مختلفة لأناس، قد يبدون من مظاهرهم عاديون جدًا، بعضـــهم صـامت تمامًا، وبعضـهم ثرثار، وبعضـهم فضـوليّ، وبعضـهم سـمج، وبعضهم متعال، وبعضهم غامض، وبعضهم مريب مثير للقلق.

ها أنا ذا أمضـــي في طريقي، لا ألقي بـالًا للواقفين على جانب الطريق يطلبون خدمة التوصيل، وهم ليسوا كثيرين على أية حال.

كم مرة، فكرت في اعتزال العمل كسائق رغم قصر مدته، وكثيرًا ما روادني البحث عن عمل آخر، لكنني أعود لأواصـــل وأعد النفس أنني ســـأظل أعمل على ســـيارة أبي حتى أجد فرصـــة عمل أخرى،والأيام تمضـــي، فلا أنا أجد الوقت للبحث عن فرصـــة عمل، ولا فرص العمل تأتي صدفة على عجلة قيادة سيارة أجرة أو في شوارع المدينة المشوهة باللافتات.

منذ تخرجت حاملًا ليســانس الآداب من قســم الاجتماع، كان ذلك حينها بديل الالتحاق بكلية الاعلام، حيث فارق المجموع نصــف درجة حالت دون رغبتي، وظروف أســرتي لا تســمح لي باســتكمال تعليمي بجامعة خاصة؛ ليكون لي ما أردت من تخصص.

في هكذا ظروف تكون الكلمات، التي تواسيك كلها جارحة، كل من يقدم النصائح محبط، الناصحون يكررون فشلهم، أبي يقول:

- وماذا سيحدث بعد تخرجك من كلية الإعلام؟
- أود ان أعمل إعلاميًا صـــحافيًا أتابع الحقائق، مذيعًا أنقل المعلومات، أرى الحقيقة وأتعامل معها.

يضحك أبي بمرارة، وكان يصمت قليلًا، ثم يسألني:

- هل لديك معارف يتوســـطون لك؟ هل لديك خبرة بالعمل؟ أم ستنتظر صدفة أن يكتشفك أحدهم؟ يا ولدي المؤهلات تتساوى بعد التخرج، لو أتتك الصـــدفة الســـعيدة بعمل ترغبه لن يكون لمؤهلك دخل بها، لو وجدت من يتوسط لك، ستكون حيث تريد أتمم تعليمك الجامعي كما قدر لك.

أتممت تعليمي كما قدر لي، ودخلت دوامة ما بعد التخرج، لا شـيء يحدث قبل تحديد موقفي من التجنيد، لا تجنيد قبل أن يأتي دوري ودور أقراني في الســن، ليس ســوى الانتظار، الذي يومه بســنة، جاء دوري أخيرًا، وبدأت الاستعداد لأداء الخدمة العسكرية .

أوراق تتبعها أوراق وبين الأوراق ترقد المعلومات والأســـرار، بيان حالـة جنـائيـة(فيش جنـائي) بيـان بـالحـالـة الجنـائيـة العســـكريـة(فيش عسكري)، قيد عائلي، استمارة ستة، كلما أنهيت ورقة طُلبت مني ورقة أخرى، بكل ما يترتب عليها من روتين.

حتى كـانـت الورقـة المفـاجـأة (بيـان القيـد العـائلي) وهو بيـان يتم استخراجه بعد تقصي عدد أفراد الأسرة الواحدة الذين يحملون اسم الأب، أنا الابن الأوســـط لأبي، شـــقيقي الأصـــغر لا يزال في بداية المرحلة الجامعية، أما شقيقي الأكبر المسافر دائمًا منذ تخرجه في الجامعة، فلا

أدري إن كان قد أدى خدمة عسكرية أو أعفي منها لأسباب عائلية فهو ابن وحيد لوالدته المنفصلة عن أبي قبل زواجه بأمي.

حينها سألني الموظف المختص أسئلة تخص أبي وأسرتي وإخوتي واخواتي، قلت له نحن ثلاثة أشقاء لنفس الأب شقيقي الأكبر من أم أخرى، أخبرني أن البيانات أمامه تفيد بأننا أربعة، واحدة هي البنت التي تحمل اسم صابرين حسين، أخبرته أن لا أخوات لنا وعليه أن يبحث في كامل الاسم واللقب، أفاد أنها شقيقتي بالاسم واللقب وكرر:

- صابرين حسين المصري
- هل هي شقيقتي من نفس الأم؟
- لا.. هي لا تشترك في اسم الأم مع أي منكم
- هي من أم ثالثة؟!
- نعم ألا تعلم؟

يومها حملت الورقة، وعدت انتظر أبي، ريثما يعود ليلًا، فهو الذي كان يعمل على سيارة الأجرة وقتها، لنعيش ثلاثتنا أنا وهو وأخي، أما أمي فقد توفيت منذ أعوام، كنا حينها قد كبرنا؛ ليعيش كل منا عالمه الخاص، ونتقاسم مراعاة شؤون البيت من تنظيف وغسل وكي، وأحيانا تدبير وجبة الغداء، فقد قسم أبي العمل في كل ذلك بيننا أنا وأخي، وليس على أبي سوى تحمّل نفقات معيشتنا، بالعمل على سيارة الأجرة

التي اشتراها من بيع قطعة أرض صغيرة، ورثناها عن أمي، بعدها ترك الوظيفة الحكومية بمعاش مبكر؛ ليتفرغ للعمل على سيارته ويعولنا ماديًا.

كنت أحمل السر الذي يحيرني، وأدور في البيت من دون أن أخبر أخي، مرت ليلة طويلة، عاد أبي في آخر الليل منهكًا من شقاء يوم بين الشوارع والناس، اختليت به في غرفة نومه.. قدّمت له الورقة في صمت، تناولها قرأها، ثم أعادها لي بلا تعليق، ونام تاركًا عشاءه بيننا.

تملكتني الحيرة مما فعله أبي، وأغضبني تجاهله للنقاش في الأمر بعدها، حملت سري معي، وبدأت رحلة أداء الخدمة العسكرية، أغيب شهورًا، وأعود، وأحاول نبش الموضوع، وأبي يتهرب من المواجهة.

هل حقًا لدي شقيقة لا أعرفها، بالأوراق الرسمية هي وقت تجنيدي في العشرين من عمرها، ترى هل تعلمت؟ هل تخرجت؟هل تزوجت؟ هل أنجبت؟

كيف تعيش؟ ماذا تعمل؟ أين تعيش؟ مع من؟

ماذا لو قابلتها من دون أن أعرفها وفارق السن بيننا ليس كبيرًا، ماذا لو ألتقيتها لقاء الأحباء؟

لم يكن ينقذني حينها من براثن تفكيري، سوى أنني أغيب أيامًا كثيرة عن وجه المدينة، وحين أعود أكتفي بالتعامل مع المقرّبين، الذين أعرفهم من الأصـدقاء أبناء وبنات العائلة المعروفين لي، كنت أتهرّب من لقاء حبيبتي سيرين، كلما طلبت لقائي، لا أود أن أختبر مشاعري في لقائها، هي التي كنت أعدّ نفســي للزواج منها بعد إنهاء خدمتي العســكرية والالتحاق بعمل مناسـب، كنا نرتّب الأحلام معًا، منذ التقيتها في السـنة النهائيـة بـالجامعـة، ومن وقت لقائي بهـا قررت العزوف عن العلاقات العابثة، وادخرت مشاعري لعلاقة جادة، ما الذي تغيّر في مشاعري؟ لا أدري، لماذا لم أعد شــغوفًا بها؟ هل هكذا تصــنع بنا الخدمة الإجبارية والبعاد القسري؟ هل للكدر دخل في زهدي عن حبيبتي؟ هل وهل وهل؟!

تعود كلها إلى سـري الذي أخفيه عن أخي وحبيبتي ورفاقي، ويخفيه عنا أبي، ولا يريد فك طلاسمه منذ كشفته الأوراق الرسمية لي، ولسوف تكشفه لأخي، حين يمر بالخطوات نفسها بعد تخرجه.

تركت أبي وشــأنه، على أمل أن يبوح لي بســره في وقت ما، ولم يفعل، هو لا ينفي حقيقة الأمر ولا يؤكده.

وأنا أمضي أيامي، أسافر وأعود حتى مر عام ونصف أنهيت خلاله خدمتي العسـكرية، وعدت إلى حياتي المدنية، التي أول درجاتها البحث عن عمل.

أدور منذ الصـــباح بأوراقي بين الهيئات والشــركات، أترك ملفًا هنا وملفًا هناك، وانتظر اتصـــالًا لا يحدث، أعاود البحث بين شـــركات التســـويق، فلا أنجح في اجتياز اختباراتها، أذهب إلى مراكز التعليم المتخصّـصـة في الدروس الخصـوصـية المنتشـرة بين طلاب وطالبات المدارس، يسألونني عن سنوات الخبرة، ومن أين لي بها وأنا من التخرج للتجنيد.

تزوجَت سـيرين يأسًـا من انتظاري، في اليوم الثاني لزواجها تسـللتْ وحدثتْ أخي على هاتفه، ليمر تحت نافذتها لأمر هام، كانت تعلم أني لن أرد على اتصـالها بعد زواجها، ألقت لأخي قصـاصـة صـغيرة مطوية طلبت أن يوصلها لي.

كتبت: "هذا هو اليوم الثاني لزواجي الذي فرضـــوه علي، بعد أن تركتني دون سـبب واضـح، واعلم – يا حازم – أنه لم يمسـسـني حتى الآن، ولن يكون ذلك أبدًا".

كانت تلك رســالتها لي التي طويتها في جيبي في صــمت، وظلت هي تتابع أخباري من المحيطين بي من الرفاق والأقارب، وأنا أواصـــل البحث عن عمل من دون أن أهتم.

تركني أبي بين جولاتي في البحث عن عمل منشغلًا بذلك عن إعادة ســؤاله، حتى إذا أنهكني البحث ذات ليلة، عاد ليجلس معي في وجود

أخي حسـام، وهو يحدثني عن مدى تقبّلي لوظيفة سـائق، ولما كنت قد تعبت بحثًا، فأنني أخبرته بقبولي.

حينها قدمني لعائلة ثرية ترغب في سـائق يقوم بتوصـيل السـيدات والأطفال إلى مدارسهم وأنديتهم.

أتعامل مع أناس لا أعرفهم، أمضـي وقتي بينهم في سـير وانتظار، أوامر دائمة،وانتظارات دائمة.

ذهاب وعودة، سـير ووقوف، أصـعب مافي العمل هو التعامل مع السـيدات والأطفال، يتركونك بالسـاعات أمام البيت في انتظار أن تنزل إحداهن فتأخذك إلى حيث مواقف الانتظار أمام مراكز التسـوق، أو صـالونات التجميل أو الصـالات الرياضـية، تدخل قاموسك مصـطلحات لا تعنيك بشـيء (مول – سـنتر– جم –باركينج) كلها اختصـارات أعجمية لأماكن تخصـهم وحدهم، سَأمتُ العمل سائقًا لعائلة، فتركته.

التحقت بعمل في مطعم ومقهى على النيل..أقوم بخدمة الزبائن، في كلّ يوم أرى وجوهًا مختلفة، رجال وشـباب، نسـاء وبنات، معظم من أراهم ثنائيات، والقلة منهم مجموعات أسرية أو صداقات شباب وبنات.

في البداية أحببت هذا العمل، بمرور الوقت أصـبح العمل اعتياديًا، ولاحظت تكرار الوجوه أحيانًا، حتى كان يوم دخل إلى المقهى شـاب

وفتاة، جلســـا على طاولة في الركن الخاص بخدمتي، كانت الفتاة مبتهجة تضحك بصوت مرتفع، أما الشاب فبدا لي بلا مشاعر، توجهت لهما أدون ما ســيطلبان لتلبيته،اســتفزني فعل الفتاة وتملكني غضــب رجوليّ، من يضمن لي ما يفعله هذا الشاب المستهتر بها؟

تفحصت وجهها، وتأملت ملامحها أبحث فيها عن ضالتي، أبحث عن لمحة شبه بيننا، عن وشائج الدم التي لا تسطرها الملامح بل تنقلها عبر سمة بسيطة، رمقني الشاب الذي يصحبها بنظرة أخجلتني، تلقيت الطلبات ومضيت.

تمنيت لو أنني أعمل الآن على تقديم الطلبات؛ حتى يتســـنى لي التقاط خيط الحديث.. عدت أمر بين الجالسين، وأبطئ المرور بالقرب منهما، كان الشاب يمسك يدها، ويقترب منها أكثر، همس لها.

- أخيرًا اقتنعتي يلا بينا بسرعة
- دلوقتي؟
- أيوه دلوقتي مش قادر اســـتنى أكتر، المحامي موجود هيكتب العقد.
- وبعدين؟
- وبعدين...!

شـعرت وقتها أن الشـاب يسـتدرج مشـاعر الفتاة إلى مراحل الرغبة، ضغط يدها بين يديه، وقلب يدها، ووضع قبلة على كفها.

- يلا بينا
- هههههه..!

أطلق الشـــاب ضـــحكة ماجنة وطلب فاتورة الحســـاب، عدت له بالفاتورة تناولها وبقيت واقفًا، كان يضـــع النقود في الحافظة حين انتبه أنني لا أزال واقفًا، اســتفزّه وقوفي، فرمى الحافظة على الطاولة ودفعني بيده عن طريقه، أمســـكت به، ودار شـــجار بيننا بالأيدي في لحظة جنونية خاطفة.

أعرف أنني حركتني مشـاعر مجهولة تصـطدم بكل الثنائيات، التي طرف فيها فتاة، وأراجع نفسـي مرات أنني حتى الآن، أعرف أنها ليست لي أخت، ولكن ماذا لو كنت مكانه، وأنا الذي أغرر بها، أنا لســـت قديسًـا، ولسـت زاهدًا في العلاقات الحميمة، وكم من المرات فعلتها في علاقات الجامعة العابرة مع حبيبات أصـــبحن الآن زوجات وأمهات لرجال آخرين لا أعرفهم!

انتهى الشـجار بتدخل إدارة المكان ووعودهم بإنهاء خدماتي، وحين غادر الشـاب لم يجد فتاته.. كنت سـعيدًا بخلاص الفتاة، رغم أنني لا أعرف إن كانت سـتتواصـل معه مرة أخرى أم لا، انتهى عملي في تلك

الليلة، ولم أعد له مرة أخرى، مضـــيت أيامًا بين البحث عن عمل على شبكة الانترنت، والخروج للبحث بين شركات طلبت أوراقًا على أمل أن يرسلوا لي فيما بعد.

وكلما التقيت أبي شغل وقته بأشياء تبعده عن الحوار والمواجهة،لا أعرف كيف يجيد أبي التهرب من المواجهة في موضوع مصيريّ، كيف ينام مطمئنًا، من دون أن يحسب أن ألتقي تلك الشقيقة المجهولة بالنسبة لي صـــدفة، أما أنا فذلك الأمر كان كل ما يشـــغلني منذ صـــادفتني الحقيقة.

هاهو ذا–الآن – ينام في حجرته، وأنا عائد من عصـــف غرائزي وعقلي ينهشـني، بعد تلك الليلة التي أمضـيتها بين السـيدة التي أثارت غرائزي وبين أحوال الناس الذين قابلتهم في يومي.

أحاول التفكير للوصـــول إلى الحقيقة، حتى الحقائق البســـيطة المحيطة بي مســـتغلقة، هل ســـأفي بموعدي غَدًا مع تلك الســـيدة أم سأتركها لمصيرها، ماذا لو تركتها؟ وأعفيت نفسي من عناء التفكير في حالتها؟

ولكنها حملتني حقيبتها وأسرارها وأمانة تبليغ أحدهم لو لم تعد، ماذا لو حدث لها مكروه؟ كيف ســـأعرف لو تخلّيت عنها، ولم أذهب؟ربّما

أظل دائمًا أفكّر، فيما حدث لها، وأجلد نفسي، بينما تكون هي على ما يرام وأنا لا أعرف.

هكذا أخذتني أفكاري، حتّى حسمت أمري بالذهاب إليها لأعيدها، وأقنعت نفسي اللوامة، بأنني سأقوم بذلك من أجل ألا تتعرض لمكروه.

عند هذا الحد كنت قد أنهيت كوب الشاي، الذي أعددته بعد عشائي المختلط اللقم المغموس بالأفكار، فتحركت متكاسلًا إلى سريري، وألقيت جسدي المنهك، وغصت في أفكار أخرى بطلتها سيدة ترتدي رداء بنفسجيًّا، وتتسم بجسد مشبع وغرائز قاتلة، ويدي الشقية تلمس فخذها بمكر انتهازي، واشتعال حواس الآن تعريها من كل شيء، وتغيبني في جسدها.

رضا

- أنا متسولة ياسيدي...متسولة، راجعوا ملفي القديم

هكذا أصيح ولا أحد يجيب سوى ذلك الشرطي غليظ القلب، الذي يأتي كلما علا صياحي، يركلنا بقدمه ويضرب بحزامه عشوائيًا وسط زحام مكان الاحتجاز، منذ حملونا من الشارع في وسط المدينة، ونحن لم نر النوم أو الراحة، واقفين على أقدامنا حيث المكان لا يتسع لنا، لم أتوقف عن الصياح لكل شرطي يمر من أمامنا أعرفه بنفسي، أنا متسولة، افتحوا ملفي القديم، أنا متسولة، رفعت النقاب عن وجهي، نهرني الرجل ذو اللحية، الذي يقف بالقرب مني في تخشيبة احتجاز الرجال المجاورة، واقترب مني رجل آخر نحيل من دون لحية وهمس:

- أخوكي حماده..حماده سفروت
- عاوز إيه يا سي سفروت
- أنا كمان ماليش في الهري بتاعهم
- أمال كنت ماشي معاهم ليه يافالح؟
- زيادة عدد وأهو كمان فيه حتت طرية

انتبه له الرجل ذو اللحية؛ فنهره، وأبعده بدفعة قوية من يده، أبعدت المجاورين جميعًا، فمالت جذوعهم، ولولا زحام الحجز لتكوموا أرضًا،

لكنهم تكاتفوا وعادوا واقفين، وحينما اعتدلوا لم أكن قد أعدت النقاب إلى وجهي، فعاد الرجل ذو اللحية ينهرني:

- احتشمي يا امرأة..!

هذا الرجل فظ يعاملني بغلظة، منذ تدافعنا في زحام ملاحقة الشرطة لنا، أنا لا أعرفه من قبلُ، ولا أعرف كل هؤلاء المحيطين بي، أنا مجرد بنت بائسة، ألقتها الحاجة في طريقهم، كانوا يسيرون في الشارع بنظام محدد، السيدات والصبية والبنات في الأمام، والرجال خلفهم، يحملون لافتات، لم أقرأ ما كتب عليها، كنت أتعجل المرور من خلفهم؛ حتى أصل إلى السوق؛ لأشتري لوازم عملي الحر.. نعم أنا أعمل ولا أتسوّل، لكنهم صنفوني من قبل متسولة، أنا أحمل مؤهلًا متوسطًا، لم يؤهلني للعمل في أي مكان. ومنذ طفولتي، وهم يعدونني بالعمل حين أكبر، ولذا فقد اختصروا سنوات تعليمي في مؤهل متوسط، ذلك أن أمي متزوجة رجلًاغير أبي.

أنا لا أعرف لي أبًا منذ وعيت على هذه الدنيا، لا أرى حولي سوى أمي أعالتني، وهي تعمل في معمل تحاليل طبية، وتعود لي بالمأكل واللباس، نسكن شقة صغيرة في بيت قديم أراها بيتًا كبيرًا كون أمي تنظفها جيدًا، وتفرشها بأناقة فقيرة، وتنتظر يومًا أنتهي من تعليم

متوســـط، لأجد عملًا يســـمح لنا بتقاســـم النفقات، ويخفف عنها عدد ساعات العمل.

كنت صغيرة حين جاء رجل ليس أبي؛ ليعيش بيننا في نفس الشقة، قالت أمي:إنّه أبي العائد من ليبيا بعد طول ســـفر، أتذكّر حينها أني لم أفرح بعودته، بل تذمرت من مشـاركته لنا في السـكن والنوم والطعام، لم أشعر بأبوته يومًا، بل كنت كلما كبرت كبرت كراهيته في قلبي، أما أمي تلك المرأة البائســـة، فلم يزدها وجوده بيننا ســـوى تعبًا وعبودية، تعمل صـبحًا، وتعود عصـرًا محملة بفتات تعدّه طعامًا؛ فيشـاركنا فيه، ويأمر وينهي، وهي لا تملك سوى الطاعة، كنت كلما سألت أمي:"لماذا أدخلت رجلًا غريبًا بيننا"، تقول:"لو عشنا بلا رجل سينهشنا رجال كثر، وتلوك ألسـنة النسـاء سـيرتنا ثم نطرد من الحي" كنت لا أفهم ما تعنيه حينها، لكنني حين وعيت قليلًا، باتت أذناي تلتقطان لمز النســوة في الأســواق وعلى أبواب البيوت وتحرشـــات الشـــباب والرجال المغلفة بعبارات معسولة.

كبرت، وبات وجودي في نفس البيت غير مريح، كنت قد أنهيت دراستي المتوسطة، وحصلت على دبلوم فني تجاري، تحدثت مع والدتي عن شأن الانتقال من العيش معها وزوجها للعيش مع ابنة خالتي، وهي سيدة صغيرة، يقولون أنها ترمّلت مبكّرًا من دون إنجاب، رغم أني لم أر

لها زوجًا منذ وعيت، ولا أعرف عن موت زوجها، لكننا وجدناها تنتقل؛ لتسكن شقة قريبة بنفس الحي، وهي تعيش وحيدة.

وافقت والدتي بعد نقاش قصـــير، انتقلت للعيش مع ابنة خالتي، وكان علي أن أعمل لأعيش،حاولت أن أجمع خبرة من تجارب صديقات وزميلات سـبقوني إلى سـوق العمل، بائعات في محال، عاملات نظافة في فنادق رخيصـة، جليسات أطفال في دور حضـانة بالأحياء الشـعبية، عاملات باليومية في ورش ومصـانع صـغيرة، كلهن يتعرضـن للتحرش والإهانات بأشـــكال شـــتى..اخترت من بين هذه المهن أن أعمل لدى سيدة، كنت أتخيّل أنني بذلك أنجو من أشياء أخرى، حتى لو اضطررت للعمل لوقت أطول، التحقت بمحل لبيع الملابس المســـتعملة التي تأتي من الخارج في بالات مضغوطة، تفتح وتصنف وتعلق كل قسم في جزء من المحل، صـــاحبة المكان ســـيدة، عرفتني بها ابنة خالتي، التي بت أعيش معها، كانت تشـــتري منها بعض الملابس النســـائية، وتعيد إليها رونقها بالغســـل والكي، فتظهر وكأنها ملابس جديدة يتعجب الناس من كون ابنـة خالتي الفقيرة تســـتطيع اقتناء ملابس ذات علامات تجارية معروفة.

في البداية أعجبتني المهنـة، ومنحتني خبرة التعرف على العلامات التجارية للملابس وأضـافت إلى خبرة التعامل مع السوق، لكنني كنت لا أنجو من اسـتغلال صـاحبة المكان، حين تضـيف إلى عملي خدمة أن

أقوم بالتنظيف أو الطبخ والغســـل في بيتها، حتى كان ذلك اليوم الذي أرسلتني فيه ببعض الملابس النسائية المنتقاة، كي أسلمها لعميل لها في مكتبه بالحوامدية.

كان عليّ أن أستقل وسيلة نقل بالأجرة من الطريق العام؛ لأصل للمكان حاملة حقيبة تحوي الملابس، تحدّثت السيدة بالهاتف، وطلبت سيارة أجرة نقلتني إلى حيث تريد، ثم طلبت من السائق أن يعيدني في الوقت الذي تطلب منه ذلك.

أوصلني الشاب السائق إلى المكان، ونزلت فتركني في المكتب، ومضى، استقبلتني فتاة، وطلبت مني الانتظار حتى يفرغ الأستاذ من مشاغله، جلست أتابع المكان، وأخمن ماذا يكون عمل الأستاذ هذا؟

كنت أدور بعيني على حوائط المكان؛ لعلني ألتقط لافتة توضح نشاط هذا المكتب، وجدت بعض الإطارات الخشبية.. كل منها في داخله ورقة كما الشهادة مكتوبة باللغة الإنجليزية بخط رفيع، ثم تلك اللوحة التي فاجأتني عند دخول المكان تمثل وردة حمراء تفتحت، وتتساقط أوراقها كما قطرات الدم، في المواجهة وخلف مكتب الفتاة المتواضع، كانت لوحة لسيدة جميلة يرفع الهواء ثوبها وتنحني لتثبته على ركبتيها بشكل مثير، يبدو أن ملامحي وشت، بما يدور في رأسي من قلق وشك، بادرتني الفتاة الجالسة أمامي بنظرة وابتسامة:

- الأستاذ المحامي بس عنده شوية شغل
- الأستاذ محامي؟
- أيوه محامي
- يعني بيدافع عن حقوق الناس في المحاكم؟
- لا بيفض المنازعات قبل ما توصل للمحاكم.
- مممم مش فاهمة
- متفرغ لفض المشكلات والمنازعات هنا بين الأهالي.

حينها.. دخل رجل وامرأة وقفا أمامها تسلمت منهما ورقة وصورًا ودونت معلومات وعناوين وانصرفا، تلاهما أناس مختلفون، نساء فقط، فتيات، رجال بنفس الأسلوب، يتركون صورًا وعناوين، الصفة التي تجمعهم جميعًا أنهم بسطاء يتجمّلون ببعض الملابس المستهلكة وشيء من الخبث والحزن.

طال انتظاري للأستاذ حتى فتح الباب، ولم يخرج منه أحد، ثم سمحت لي الفتاة بالدخول فجأة، فأيقظتني من غفلتي الشاردة في أحوال عملهم ومحاولاتي المجهدة في استكشاف عالمهم.

سرت بقلق وتوتر إلى الداخل أحمل حقيبة الملابس، كان الأستاذ يجلس في المواجهة، رجل لا يستطيع الإنسان أن يخمن عمره، ربما في الخمسين، ربما أكبر قليلًا أو أصغر، وجهه لامع، لا يشي بشيء،

وصلعة في مقدمة رأسه، وشعر طويل يغطي ثلثي الرأس وينسدل على الكتفين، حواجبه كأنها محددة، وذقنه حليقة لامعة وشـــنب قصـــير وخفيف، قميصه محبوك على جسده كاشفًا عن صدره .

أشـــار لي أن أجلس، وتركني وراح يقلب أوراقًا أمامه، ويرفع عينيه من حين لآخر يتفحص وجهي، حتى إذا تململت، وهممت بالحديث سألني:

- اسمك إيه؟
- .....
- اسمك..؟
- اسمي...
- مش عايزة تقولي اسمك؟
- لا بس المدام طلبت مني أرجع بسرعة عشان الشغل
- طب ماهو ده شغل
- طيب شوف حضرتك هتاخد إيه عشان أرجع.

فتح الحقيبة يقلب فيها ويخرج ملابس نســـائية يفردها أمامي ويفحصها ثم يعيدها، حتى انتهى من فحصها، وأعادها كما كانت وأغلق الحقيبة، وأنا أجلس مطرقة في انتظار أن يختار شـــيئًا أو يعيد لي الحقيبة وأمضي، فاجأني بسؤاله:

- أنت إيه رأيك؟
- في إيه حضرتك؟
- في الحاجات دي؟ عجبتك؟
- حسب ذوق حضرتك، لو عجبتك
- يعني لو حد اشتراهم لك؟
- أنا؟ حد مين؟ قصدي ليه؟
- طيب طيب خلاص خلاص أنا خدتهم.

عدت إلى السيدة صاحبة المحل بوجه بشوش أبلغتها أن الأستاذ أخذ كل ما أرسلته له، ابتسمت ابتسامة ماكرة، وأمرتني ببعض المهام من تنظيف وكي ملابس وتعليق وترتيب.

تكررت أسباب إرسالي إلى مكتب الأستاذ، مرة أحمل أوراقًا، ومرة مظروفًا فيه صور لفتيات يقلبها الأستاذ أمامي، ثم يختار بعضها، ويعيد إليّ ما تبقى لأعيده لسيدة العمل.

في كل مرة أتخيّل أني اكتشفت جديدًا في عمل الأستاذ، ثم يحدث ما يهدم كل تصوراتي، ولما تكررت زياراتي، لم تعد سيدة العمل ترسل معي سائقًا، بل تركتني أتصرف في الذهاب والعودة بوسائل النقل المتاحة في الطريق.

آخر ليلة ذهبت فيها إلى مكتب الأستاذ، أحمل له مظروفًا، تفحص الصور فيه، ثم تركه، ونظر نحوي، وقال:

- وليه متكونيش أنت؟
- أنا إيه يا أستاذ؟
- أنت صاحبة النصيب في عريس عربي لقطة تعيشي وتتبسطي وتبقي صاحبة ملك.
- أنا...
- روحي فكري، وكلميني وأنا تحت أمرك.

خرجت حائرة وركبت سيارة أجرة (ميكروباص) كانت السيدة الجالسة بجواري واحدة، ممن رأيتهن بمكتب الأستاذ، حدثتني عن عمل الأستاذ الذي يسهل للوافدين من الدول العربية الزواج بفتيات صغيرات، مقابل أموال يتلقاها من الزوج وبعض من الهدايا من أهل الزوجة بعد إتمام الصفقة، حكت لي عن ابنتها التي زْوّجَها لرجل كان يحتاج زوجة متعة مؤقتة، طلّقها بعد ذلك الزوج؛ ليأتي له الأستاذ بفتاة بكر أخرى.

عدت منهكة في المساء في انتظار عودة ابنة خالتي من عمل لا أعلم عنه شيئً، اكي أعلمها بما عزمت عليه.

كنت قد قررت أن أعمل عملًا حرًا، ألهمني أياه تنقلي بمترو الأنفاق من مكان سكني حتى وسط المدينة، حين رأيت البائعين والبائعات،

يفترشون الأرض في محطة مترو الأنفاق ببضائع مختلفة، ليلتها طلبت من بنت خالتي أن تساعدني بجمعية تتشارك فيها نسوة الحي، كل منهن تدفع مبلغًا شهريًا، وترتب الأدوار؛ لتسلم المبلغ كاملًا كل حسب أولوية الحاجة، ويكون دوري الأول في تسلم المبلغ وأسدده شهريًا.

حصل أن تسلمت مبلغ الجمعية على الرغم من صغره، اشتريت بالجملة أغلفة الهاتف المحمول الرخيصة، وحملتها حتى محطة العتبة، فرشت ملاءة على الأرض ووضعت عليها بضاعتي، ساومني رجل يفرض سلطته على المكان أن يتقاضى مني مبلغًا شهريًا لقاء أن يسمح لي بمساحة أفترشها، أو: إن شئت الدفع بطريقة أخرى، جادلته، بحجة أنني أجلس في مكان عام، نعم هذا ما قلته:

- هنا.. ليس ملكك حتى تتقاضى عليه أجرًا، إنه ملك الحكومة.

حينها جمع أشيائي وألقى بها بعيدًا، فتناثرت وأسرعت ألملمها وجاءت نسوة ينصحنني بالتفاهم معه فقبلت، قلن لي:"أن ذلك مقابل الحماية من السرقات وهجوم بعض البلاطجة، وأيضًا حمايتك من الشرطة"، هو الذي ينبهنا قبل وصول شرطة المرافق، فنسرع بلملمة بضائعنا، ونهرب قبل أن يمسكوا بنا، ويصادرون بضائعنا، وافقت، وسمح لي بمساحة صغيرة.

كنت آتي من الحي الفقير على الجهة الأخرى للنيل أمام المعادي بجنوب الجيزة، اســـتقل قطار الأنفاق من محطة المنيب، حتى العتبة، أركب عربة السيدات، ربما جادت الظروف ببيع بضاعتي لسيدة يتم في عجالة، علمتني خبرة ارتياد عربة السيدات أن أنوع في بضائعي فأحمل بعض احتياجات النســوة من جوارب أو مناشــف مطبخ وأشــياء أخرى صــغيرة، ليس ضــمنها المناديل الورقية فقد علمتني خبرة البيع المتجول أيضًا أن تلك مهنة تسول.

أتبادل مع زميلات لي بعض سلعهم وأسوقها لهم لقاء هامش بسيط من الربح، في طريقي أرى بعض النســـوة والرجال ينتحلون صـــفات مختلفة لجمع المال، حاملين أطفالًا مرضى أو مدعين المرض والحاجة.

المرض أبرز الأســباب التي يقدمونها لاســتدرار العطف، ومن ثم العطاء، أنا تاجرة أبيع وأشــتري وأتقاضــى هامش ربح، نعم هامش ربح أعرف هذا المصطلح، منذ كنت أدرس في المدرسة التجارية.

لا أنكر أن البعض يلقون لي بقطع نقدية كمســـاعدات فقط، وفي الأعياد تأتينا منح من بعض أصـــحاب المروءات والمحســـنين، وهذه يتقاسمها معنا غزال.

غزال هو اسم الشخص الذي يسيطر على المكان، سمعتهم ينادونه هكذا في أثناء إبرام الصلح معي والاتفاق على منحي مساحة أفترشها،

لا أخفي أنه أعجبني الاســـم، لكنني لم أكن ألفظه أو أناديه به، كنت أكتفي بالحديث البسيط أو إلقاء تحية الصباح والمساء من دون ألقاب.

لا شيء جديد لمدة أشهر سوى أنني وسعت قليلًا من تجارتي حين نصحني التاجر بوضع بضع سماعات للهاتف بجانب الأغلفة وفعلت.

ذات صباح حملت بضائعي وحقيبة أضع فيها عباءتي ونقابي فتلك هي ملابس العمل، أخرج من البيت من دونها، وبعد أن أصل إلى سلم المحطة أتوارى، وأرتدي العباءة والنقاب، ذلك يضـــمن لي ألّا يعرفني جيران أو أقارب يمرون بالمكان..أما غزال فهو كالعفريت يعرفنا من أعيننا حتى لو لم نتحدث، ويميز أصواتنا نحن النسوة المتجاورات في المكان بغرض البيع.

في ذلك الصباح لم يحضر غزال مبكرًا، وفجأة بدأت حركة سريعة تدور في المكان جري ولملمة الأشـــياء، دفعني رجل بكفيه وأنا أفترش الأرض ببضائعي، بعثر أغلفة المحمول البلاستيكية المرنة، أقامني رجل آخر، ممسكًا بي، دفعوني وسط مجموعة من الرجال والصبية والنساء، أخذوا بضائعنا واقتادونا من تحت النفق إلى الخارج، حُمِلنا في صندوق سيارة الشرطة (البوكس) يجلس على حافته الخارجية شرطيان، وقتها علمت أننا في قبضة الشرطة، في قسم شرطة الأزبكية، ألقوا بنا في الحجز المؤقت (التخشيبة)اتصلت بابنة خالتي أخبرها، فقامت بإخبار

أمي، جاء زوج أمي وتحدث مع بعض من رجال الشـرطة وأفراد الأمن، وظل يقفز كالضـفدع هنا وهناك، وأنا أراه من خلف التخشـيبة، ولا أدري كيف يتعامل مع رجال الشرطة بتلك المرونة، ويمزحون ويطلقون النكات القبيحة، سألتني المرأة التي تجاورني:

- هو المخبر ده قريبك؟
- نعم؟!
- إيه يابت حتســـتعبطي علينا،تلاقيكي أنتي اللي مبلغة علينا ومتنكرة وعاملة نفسك بياعة
- فيه إيه بس أنا مش فاهمة حاجة
- المخبر ده تعرفيه منين؟
- زوج أمي
- خلاص ملكيش مكان تاني بينا

أنهى زوج أمي الإجراءات لخروجي، وقتها كتب عني في محضـــر الشـرطة تسـول، اجتهد زوج أمي، حتى لا تكون التهمة بائعة من دون ترخيص، قال هذا حتى يعفيني من غرامة ألف جنيه، لممارســـة تجارة من دون ترخيص، يومها همس لي أمين شـــرطة إن كنت في حاجة لمساعدته، حتى يستخرج لي ترخيص ممارسة مهنة بائعة متجولة، غمز بعينه لي معجبًا، لم أشـــأ صـــده، ربما احتجت إليه فعلًا، واســـتخدمت حكمة جارة لنا كانت لا تتعثر في انجاز ما تريد، وكنا ننتقدها ســـرًا،

كانت تقول حين تســـأل عن خدمة أداها لها رجل: "كيف تم ذلك دون مقابل؟"، تضحك جارتنا وتقول:

- شوّق ولا تدوّق

وتمر المزحة بيننا، وتختزن كخبرة حياة، لم أكن من قبل أعرف أنه حتى تلك العبارات، التي اعتبرتها مزاحًا عابرًا هي خبرة الشـارع والحياة، وأنني سأعمل بها يومًا ما.

من يومها لم يصـــبح لي مكان بمحطة المترو، ولم يعد بالمحطات تحت الأنفاق باعة، وعلمت من إحدى البنات أن غزال غاب في السجن إثر مشـــاجرة، وأن الحكومة منعت افتراش محطات المترو بالبضـــائع، وتعقبت الباعة والبائعات، وفرضـــت غرامات وعقوبات حتى لا يعودون مرة أخرى، وعليه كان لابد أن أتدبر أمري وأجد لنفسي مصدر رزق.

أصـــبح لدي رخصـــة بائعة متجولة، وحملت معها حقيبة تحوي بضـائعي، بلا مكان محدد، أبيع في عجالة داخل عربات المترو، وأبيع وأنا أسير على الأرصفة، وأعرض بضائعي على السائرين أحيانا، وعلى البنات والســـيدات العاملات في محال وســـط البلد أحيانا، وفي الحي تكلفني بعض النسوة بجلب احتياجاتهن من أسواق المدينة.

هكذا دفعني الحظ للسير في الشوارع المحفوفة بالمشكلات في وسط المدينة، وتصـــادف مرور هؤلاء المتظاهرين، الذين لا أعرفهم، وربما تلصق بي تهمة لم أرتكبها، لذا أنا أصيح كي أثبت تهمة التسول، فأنا لا أعرف تهم هؤلاء وإلى أي مصير متجهون!

عزيزة

أجلس على حافة سـرير ملوكي، ظهري للداخل ووجهي للباب الذي لا أعرف كيف يفتح.

عندما التفت فاجأني من خلفي منظر الرجل النائم في فراشـه الناعم وملابسه الفاخرة، بينما على حافة الفراش تجلس سيدة تستند إلى ذراعها وقد التفّ جذعها للداخل، شـعرها الأسـود ينسـدل على كتفيها، وقميص بنفسـجي يكشـف عن الكتفين ويغطي حتى الفخذين، ونظرة بائسـة تطل من عينيها، تأملت المشـــهد الذي ظننته لوحة، فوجدتني أنا وهذا الرجل حيث أقضـــي على حافة فراشـــه، ما بقي لي من الليل، وتلك مرآة من خلفي تعكس حركتي وسكوني.

الباب– الذي دخلت منه – موصـــد تمامًا، فقد فتحه الرجل النائم بجهاز تحكم ثم أغلقه، دفعني الفضول؛ لمحاولة فتح الباب كما فعل هو فلم يفتح، أنا لا احتاج شيئًا من خارج هذه القاعة، فكلّ ما أحتاجه متاح حولي كما أفهمني هو.

قال لي:

– هنا تجدين كل ما تريدين، ســأترك باب الحمام مفتوحًا، المبرد فيه ما تحتاجينه من طعام وشراب، خزانة ملابس ممتلئة إن شئت بدلت كل ساعة.

– هل أنا محبوسة هنا؟ سألته بابتسامة ود

– لا أنت هنا صاحبة مكان،خذي راحتك.

من وقت وصولي وجدته قد أعد مائدة مليئة بالطعام الفاخر، وعطّر البيت، وارتدى ثيابًا فاخرة ينتظر وصــولي، عاملني كما تعامل ســيدة راقية، قبّلَ يدي عند الســلام، وأخذني ودار بي، كانت الموســيقى تملأ المكان كما العطر، وأنا لا أجيد الرقص الأفرنجي، لكنني كنت مأخوذة بالحالة، أدور وأدور معه.

جئت أحمل معي شــبقًا لهذا الذي جاورته في ســيارة الأجرة، التي حملتني إلى هنا، أشتاق لدقة طبل تهزني بعنف، فأخرج ما بي، أود أن أرقص بمفردي رقصـــة تزلزل كياني، أهز صـــدري، أردافي، أتلوى، وأنثني، أحتضــن طيفًا، ثم أحرره، أســتثير أحدًا، كي يعتصــرني بين أحضانه.. وأذوب.

وهذا الرجل يلفني برقة وهدوء، يتشـــمّم شـــعري، ويمرّر يده على كتفي، ويقبّل جبيني ورأسي.. يدور بي، يطلقني ثم يعيدني.

عاد بي إلى طاولة الطعام، أجلسني بجانبه، أطعمني بيده، وسقاني مشروبًا لم أتذوقه من قبل، جلسنا نستمع لموسيقى ناعمة.

ثم تركنا الموسيقى تنساب في ذلك المكان، وسرنا معًا، وهو يلف ذراعه حول وسطي حتى كاد جسدي أن يذوب، حينها كنا ندخل قاعة كبيرة بها أرفف ومكتبة على الجانبين، وعلى الحائط المواجه شاشة كبيرة، قال:

- تعالي نشاهد فيلمًا، ماذا تحبين؟ هل تفضلين أفلام الحرب أم أفلام الرعب أم أفلام (الأكشن) قصدي أفلام الحركة؟

كنت أفند ما عرضه من قائمة الاختيارات أحاول أن أفهم، أنا لا أحب الحروب والدماء والقلق والظلم، وأما أفلام الرعب فأنا أكره الرعب، ولا أحبّ أن يفاجأني أحد بفعل أو قول مخيف، لكن ماذا عن أفلام الحركة؟سألته:

- أفلام حركة يعني إيه؟يبدو أنه قرأ مايدور في عقلي من تفسير فابتسم وأوضح:
- فيلم حركة يعني (أكشن) زي مثلا بروسلي وزي كمان في الأفلام العربي أحمد السقا
- طيب خلاص خلينا رومانسي أحسن.

أمســـك جهاز التشـــغيل،وشـــغّل الفيلم، كان فيلمًا أجنبيًّا من دون ترجمة، بدأ يحكي لي، وأنا أتابع الصـــور: فيلم طويل، قصـــة حب، لا تخلو من ألم، كيف يعيش محب بعد فناء محبوبه، ويســـتمتع بذكريات جمعتهما، يجسـدها بخياله، ليسـتعيدها وقتما شـاء، بكيت، فاعتذر عما سببه لي من حزن.

انتهى الفيلم، ففتح الحائط بجهاز تحكم وظهرت غرفة النوم فســـار إليها، وأغلق خلفه الحائط. شـــعرت بخوف هذه أول مرة أرى فيها مثل تلك العجائب، سمعت طبعًا من قبل من تلك السيدة التي تبيع الملابس المسـتعملة عن مثل تلك الأشـياء، حين عاشـتها في المملكة السـعودية حينما تزوجت من رجل سـعودي لفترة مؤقتة، وعادت فأقامت مشـروعها التجاري من حصـــاد تجربتها، أما أنا فلم أجنِ من تجربة زواجي ســـوى القليل، ولا أزال أكافح حتى أعيش..بقيت مكاني انتظر ماذا بعد تحرك الحائط وعودته كما كان، مرت دقائق تحركت خلالها إلى حيث كنت ثم عدت، ففتح الحائط، كان الرجل ممددًا على السـرير، بيده كأس، شـرب رشفة ثم أشار لي بالقدوم.

- اتفضلي
- هاه... طب أصل أنا...
- تعالي..تعالي... الدولاب ده فيه كل اللي تحتاجيه.

تحركت على مهل إلى القاعة، التي ينام فيها، وقفت أمام خزانة ملابس كبيرة حائرة في اختيار ثوب يبرز مفاتني، أشـــار لي حيث كان هذا القميص الذي أرتديه معلقًا، تعجّبت أنّه كان مناسبًا لي، أما هو فقد طلب مني أن أجلس،وأحكي له.

فماذا أحكي؟ هل أحكي له حكايات الناس الذين ألتقي بهم، كل من التقيتهم لهم حكايات، هو أيضًـــا، لابد أن وراءه حكاية ما، إن لم يكن كتومًا ســـأعرفها وأحملها معي، ولكن ربما لا تصـــلح حكايا غيره كي أحكيها له في تلك اللحظة،هل أحكي حكايات النسوة في بلدتنا؟ لعلّني بذلك أفشي أسرارًا، وأكشف له خبايا عالمنا.

هل يعرف شيئًا عن معيشتنا؟ هذا الذي يحرك كلّ شيء بلمسة من أصبعه؟ ولو حكيت هل ستكون الحكايات مسلية؟

هذا رجل رومانســـيّ، وقد جاء بي ليقضـــي معي وقتًا ممتعًا، فأين هي المتعة في حكايات بلدتنا، وما هي التسلية في حكايات هؤلاء الناس من الرجال والنسوة!؟

لكن ماذا لو حكيت عني أنا؟ ربما هذا ما يريده، وأنا –أيضًـــا – أحتاج أن أتحدث وأخرج من قلبي أحاديث الأسرار المتعبة.

- كل ده تفكير عشان تحكي

- بافكر احكي لك إيه
- أحكي اللي يجي على بالك
- اختاروا لي اسم عزيزة على اسم جدتي لأمي، بس أنا عمري ما حبيت الاسم ده، عشان هما لما بيختاروا أساميناء بتبقى عكس نصيبنا من الدنيا.

كنا أربع بنات، و كنت آخر العنقود أصغر اخواتي، ولم يكن لنا أخ صـــبي..عشـــنا في بيت صـــغير جدًا، مكون من غرفة واحدة وحمام صـغير، وممر نضـع فيه موقد لطهي الطعام، أبي كان يعمل في القرى القريبـة باليوميـة، أحيانًا كفلاح أجير، وأحيانا كعامل بناء، أمي تفترش الرصـيف القريب؛ لتبيع بعض المأكولات، وأحيانًا تخرج مع النسـوة في عربة نصـف نقل لتبيع الخضـروات أو الليمون والجبن القريش أوالجبن القديمة في سوق المدينة القريبة.

وعيت على انتظارات أبي وأمي لنا؛ حتى نكبر؛ فتتبدل معيشتهم،أما الجيران، فكانوا يحســدوننا أن جئنا بنات، كنت صــغيرة لا أدرك لماذا! حتى صارت أختي الكبرى عروسًا لم تكمل تعليمها، تركت التعليم، وهي في الصـف الثاني من المرحلة الاعدادية، هكذا البنات في بلدتنا أغلبهن لا يكملن التعليم، حين تأتي فرصة الزواج.

ذات يوم، جاءت سيدة لا نعرفها لزيارتنا، تحدثت مع أمي، وأخذت صـــورة أختي الكبرى ســـامية، وغابت أيامًا، ثم عادت تصـــطحب رجلًاغريبًا، يختلف عنا في ملابســـه وطريقة حديثه. تزوجت أختي الكبرى من هذا الرجل الغريب، ورحلت معه إلى بلده البعيد.

كلما سألت عنها، قالوا لي هي في الحجاز عند بلد رسول الله، مر وقت طويل بحساباتي الصغيرة حينها، وبحساباتهم زمن قصير.. حتى عادت أختي في زيارة لنا مع زوجها، كانت ترتدي زيًا مختلفًا عنا لونه أسود، وتخفي وجهها لا يظهر منه سوى عينيها، عندما رأيتها لأول مرة فزعت منها، ولم أتعرف عليها، حتى دخلت البيت، ورفعت الغطاء الأسود، واحتضنتني.

بيتنا في أثناء غيابها تبدل، فقد انتقلنا لبيت جديد متســـع قليلًا، واشترى أبي بعض الأثاث المستعمل، قبل مجئ أختي قال:"حتى نستر البيت أمام الأغراب"،جاءت أختي ببعض الهدايا والملابس لنا، تركها زوجها تقيم معنا ثلاثة أشهر، وذهب هو ليقيم في مكان آخر، في أثناء وجودها كنت أسترق السمع إلى أحاديثها عن زوجها مع أمي، لم أكن حينها أفهم شكواها، كانت أمي تبسط لها الأمر.

- الراجل ياخد مراته من مطرح ما هو عايز
- بس يا مه أنا تعبانة ومش بيعود عليا من كده غير التعب

- يابت اصـبري بكره تتعودي وتبقي عنده أحسـن واحدة، أحسـن من الحريم اللي بيعاشرهم كلهم
- أحسـن واحدة إيه يامه، ده سـايبني هنا عشـان بيقضـي جواز متعة مع واحدة تانية في شقة مفروشة
- طب ماهو هيسيبها وهو مسافر ويرجعك أنتي معاه يا خايبة

لم أكن أفهم شـــكوى أختي ولا منطق أمي في تبرير موقف زوج أختي، ولا أفهم من مشكلتها حينها سوى أنّ زوجها جاء بها هنا، ليتركها لدينا بعض الوقت، ويعيش مع سـيدة أخرى للمتعة، وإن كنت لا أعرف ماهي المتعة في عرف زوج أختي! ولماذا لا يجد هذه المتعة في الحياة مع أختي!

أختي الثانية فايزة كانت تفهم وتعرف، وحين جاء دورها، هددت أن تترك البيت، وتهرب حتى لو زوجوها رغمًا عنها، كانت تحب ابن عم لنا يعيش في قرية من قرى الجيزة، جلس أبي أمامي ليحدثها، كنت قد كبرت عامين كاملين، وقد دخلت حياتنا خلال هذين العامين وســـائط جديدة تجعلنا أوفر حظًا في المعرفة وأســرع نضــوجًا، أبي كان يحدّث أختي الثانية بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى.

مرة يغريها بالحياة المرفهة التي سـوف تجد فيها بيتًا خاصًـا واسـعًا لها، وبالبيت الذي سوف تبنيه في بلدتنا أسوة بأختها الكبرى التي ترسل

الأموال؛ ليشـــتروا لها أرضًـــا ويبنون عليها بيتًا بالطوب الأحمر، ويجهزونه لها، ومرة يحاول أن يدخل الخوف إليها من زيجة فقيرة من ابن عمها الفقير، حيث ستعيش حياة الفقر والحاجة، وتسكن غرفة في بيت عمها مع عائلته، وأمام عناد أختي وصلابة موقفها، كان أن اختار أبي حلًا وسطًا.

- ابن عمك مش هيطير، أهو يســتنى تتجوزي راجل خليجي، لو عجبك الحال معاه كملي، ولو زهقتي أو هو اكتفى هتكوني لك حقوق تاخديها، وبعدين تبني البيت، وتحته دكان، وتكوني نفسك، وتتجوزي ابنك عمك ومالوا.

فايزة أختي أبلغت ابن عمي بما يدبر، أرسلت له عن طريق سيدة دلالة تتجول في القرى تبيع ملابس وأشياء نسوية، وتتقاضى الثمن بقسط شهري، تأتي إلى قريتنا بين الحين والحين؛ لتجمع أقساطها

حملتها فايزة الرسالة لابن عمي، الذي أصبح لا يمكث في مكان محدد كونه يعمل أجيرًا، ينتقل للعمل من قرية لقرية ومن مدينة لأخرى، يبدو أن الفقر والحياة القاسية قد علمته القسوة، فلم يرسل لها ردًا يخبرها فيه ماذا تفعل.

عاشت فايزة تحت ضغط إلحاح أسرتنا الفقيرة في تزويجها بدلًا من ضياع فرص الزواج في انتظار من لا يملك، طال انتظارها، ولم يأت

رد، والعروض تتوالى كل صـــيف من هؤلاء الذين يأتون عن طريق المكاتب والنسوة الدلالات.

بلغت أختي سن الثامنة عشر، وأنهت دراسة متوسطة، هدأ سوق عروض الزواج كونها أكبر من البنات المتوفرات بالقرية لعروض الزواج، وخرجت أختي لسوق العمل، اختارها الأستاذ؛ لتعمل في مكتبه سكرتيرة، الأستاذ هو صاحب مكتب لحل المشاكل هكذا فهمت وقتها، لديه مكتب كبير في المدينة القريبة، ومكتب ملحق قريب من قريتنا، اختار أختي للعمل لديه، ولم يعترض أبي، كبرت أنا وصـــرت في المرحلة الإعدادية، حين جاءت فايزة أختي تصطحب عريسًا خليجيًا، لأختي الثالثة هناء، قالت: إنه عميل في مكتبهم يرغب في أن تجد له عروسًا مناسبة، فقررت أن تهديه لأختها هناء، لم تظهر هناء اعتراضًا، فتركت المدرسة الثانوية المتوسطة من الصف الأول، وتزوجت رجلًا من دولة قطر، لم أكن أعرف عن تلك البلاد سوى الاسم، حينما يتردد في زيجات بنات بعض الأقارب والجيران، هذه تزوجت سعودي، وتلك زوجوها كويتي، وأخرى جاءها زوج من قطر، اشـــتهرت قرانا بزواج بناتهن من العرب، وانتفع من وراء ذلك أصـــحاب مكاتب، فتحت لهذا الغرض ونسوة دلالات، وسميت منطقتنا باسم العرب.

رحلت هناء مع زوجها القطري، وغابت طويلًا كنا نسمع عنها فقط من القادمين حين ترسل لنا بعض الأموال و رسائل أو تسجيل صوتي

لها ولصـياح أطفالها، أنجبت في خلال ثلاثة أعوام ثلاثة أطفال، قالت أنها التحقت بمدرسة ليلية لتكمل تعليمها.

وجاء دوري ولا تزال فايزة تعمل بمكتب الأســـتاذ إلى جانب إنجاز بعض الصـفقات لصـالحها، كانت تتكسّـب مالًا أكثر مما يأتي من أي من الأختين، اللتين سافرتا كل منهما مع زوج من بلد مختلف.

لم تعد الأسـرة تطالب فايزة باختيار زوج عربيّ ينفق بسـخاء، كانت هي قد اعتادت أن تشـــارك في نفقات البيت؛ لتضـــمن ســـكوتهم، ثم اختارت أن تنتقل وحدها إلى مدينة الجيزة، وتسـكن شـقة تدفع إيجارها، مما يعود عليها من الوساطات والإكراميات، كما يسمونها.

بدأت عروض الزواج من عرب تأتي وأنا في الصـــف الأول من التعليم المتوسـط، وقد تكوّنت لدي ذاكرة سـيئة عن زواج الأغراب، من حكايات أختي ســـامية مع زوجها وحكايات بنات أخريات، فهمت ماذا تعني أختي من شـــكواها، وحين فهمت كنت كلما تذكرت أســـرع إلى الحمام لأستفرغ ما في معدتي من زاد أو ماء.

- وإيه أخبار الحب عندكم؟

فاجأني صـــوت الرجل الذي ظننته نام من الملل ورداءة ما أحكي، وهاهو ذا يســـألني عن الحب، ماذا يعرف هؤلاء الناس عن الحب؟ وماذا نعرف نحن؟

الحب لديهم سهل ومتاح ككل الأشياء المتاحة حولي الآن، والحب لدينا بعيد المنال بمقدار بعد الأموال وأكثر.

- كنت أظنك نائمًا وأنا أحكي، وما أفعله أنا ليس سوى استكمال بوحي.
- كلميني عن الحب عندكم
- الحب يا ســـيدي حاجة زي الفاكهة واللحمة الغالية قدام ناس بيلاقوا رغيف العيش متغمس بالشـــقا، تلاقيهم بياكلوا اللحمة عالريحة لو مروا قدام دكان مشويات.
- إزاي يعني يحبوا ع الريحة!
- يحبوا الحب للحب، يحبوا يشوفوا الحب وينصرونه لو حتى في الأفلام..
- جربتي الحب؟
- ليس إنســـانًا من لم يمر به الحب، وأنا لا أدعي أني مررت بتجارب حب، لكنني في شوق للوقوع في الحب، أود لو أحببت، وتحابيت.
- ألم تتزوجي من قبل؟ ألم تحبي الرجل الذي اخترته زوجًا؟

- دي حكاية تانية خالص، حكاية إني حبيت الراجل اللي اتجوزته قبل ولا بعد، قصة طويلة
- كملي أنا سامع
- طب يعني...
- كل حاجة تيجي في وقتها، وأنا ألاقي لازم حاجة فيكي تحركني وبعدها تشوفي هاعمل إيه
- بس احنا بنحكي بس كلام
- هو الكلام ده أكتر حاجة فيها إغراء، ممكن طريقة نطقك لكلمة، ممكن حركة، همسة، كمّلي...

حسين المصري

الليلة مش عايزة تعدي، وأنا قاعد بأقلب في الصـــور، إيه اللي خلاني فتحت باب الذكريات، ما أنا كل ليلة باعمل نفسي نايم عشان أهرب من مواجهة ابني، ألاقي نفسي نمت بجد، سنين اتعودت على كده، في القعدة ساكت أو قايم قاعد أو خارج، وبالليل أمثّل النوم فأنام.

ابني يحتاج أن أصارحه كيف أصارحه، وأنا نفسي أنتظر معجزة تتكشف لي.. بماذا أصارحه؟ بذلك الماضي الذي عشناه، ثم انفلت من بين أصابعنا، بالأحداث التي غافلتنا، وخطت سطورها.

هو يبحث عن الحقيقة في ما أبرزته له الأوراق الرسمية، وأنا أبحث عن الحقيقة الضائعة مني ضمن ما ضاع ومن ضاعوا، آه يا هذه الصـــور يا من فيها أفيقوا من غفلة، أو عودوا من موت، وتعالوا نعيد العمر من جديد، ونحرص ألّا تسرق أحلامنا.

نحن نتراص على ورق مصقول، أنا في المنتصف أقف مكتوف اليدين، كمن يحمل سرًا في قفصه الصدري يضمه بيديه، والرفاق من حولي.. من أين نبدأ يا رفاق؟ من يوم خرجنا نشق ليل الأحلام، لنأتي بفجر جديد، وما قبل ذلك عبث الصبية الذين يتدلّون على أكتاف آباء

مخضـرمين، عاشـوا الوقت الضـائع، لم تأت ثورة يوليو لتقسـمهم، فئتان كانوا، من قبل ومن بعد، حفظ كلٌّ منهم مكانه على خارطة المجتمع.

لم يكنْ مقدّرًا لآبـائنـا الكـادحين، أن يتزوج أحـدهم من بنـات الفئـة الأخرى، لم يحـدث تزاوج إلا فيمـا نـدر، ولم يكن يـأتي من أبنـاء الفئـة الأخرى من يحمـل أميرة من بنـاتنـا على حصـــانـه الأبيض، تلك هي حالات الاســتثناء والندرة..حتى أبي لم يكن من تلك الندرة، حين التقى بأمي، فقير متعلم تزوج ســيدة من بقايا الأتراك الذين مصــرتهم الحياة وتجاوزهم الزمن.

هكـذا ولـدنـا لآبـاء وطنيين، فتعلمنـا على أيـديهم حـب الوطن، هم عاشوا الثورة شبابًا، ونحن كنا للثورة أبناء شرعيين، تشبّعنا بحلم التحرير العربي والقومية، الذي حملنا أياه الزعيم الأب.

المذياع كان وسـيلتَنا، يصـدح في بعض البيوت والمقاهي، ونسـتمع إليه من الشـــرفات،..قصـــص بطولات وأخبار وأغان، تحفظ التاريخ وتلقّنه، نعرف أعداء الوطن المحتلين السـابقين، نعرف شـوكة الاحتلال في قلب الوطن (فلسـطين) غزة، سـيناء المحتلة، قرارات الأمم المتحدة، انكسـارات ما بعد النكسـة، الأرض، العرض، الكرامة، كلمات كنا نرددها نكتبها في موضوعات الإنشاء.

ما معنى الاســـتنزاف؟ أن نرهق العدو كرًا وفرًا، ماذا تعني الحرب الباردة؟ لا نعرف ســوى أن تلك المصــطلحات تشــعل دماءنا بالنخوة، وتشحذ فينا حب الوطن والتضحية في سبيله.

يغيب بعض الآباء ويعودون، يحكون للرفاق ونحن نسمع، من حرب لحرب، بين الانتصارات والانكسارات،ونحن صبية نركض، نلعب الكرة الشراب في شوارعنا، نتشكل فرقًا من أسماء الشوارع المتجاورة، أو نلعب حربًا بين العســكر والحرامية، نتعادى تمثيلًا ثم نعود أصــحاب، نعيش الحب خلسة.

تقذفنا البيوت كل صـــباح للشـــوارع، وتعود تلملمنا قبيل الغروب، المساءات سهرات أسرية ولهو في محيط العائلة.

وأنا وتلك الصــغيرة نقتنص اللحظات، نتجاذب النظرات، نلتقي عند الدرج.. نتلامس خلسة، تفرّ من قبلة خاطفة، فتلهب مشاعري.

- سنتزوج
- نتزوج؟ كيف؟
- نعيش معًا في بيت واحد كأبي وأمي
- أبي يقول أنه ندرني لابن عمي
- أخوك راضي صاحبي، سيقف معنا

الأيام مثل درجات السلم، الذي يفصلني عن لقاء الأحبة، نهبطه بسرعة نبض الشوق، نصعده بكدر البعد، من الذي وشى بقبلاتنا المسروقة كل صباح تحت منعطف الدرج؟ فسلبنا لحظات السعادة الخاطفة.

كبرت الصغيرة، صارت تنزل كل صباح إلى المدرسة بصحبة راضي، وأنا أسير بمفردي حتى ينتهي راضي من توصيلها إلى مدرستها، ثم ينضم إليّ، فنذهب معًا من دون إشارة إلى ما حدث.

أقامت الأيام سورًا بيننا، يعلو كلما خط التقويم رقمًا أكبر، لم تكن مفاجأة حين دعاني راضي لعرس أخته، ولم أكن بلا مشاعر حين ذهبت، أنا انسان كأي مواطن في بلدي يتخرج، ليجد أمامه الأعباء تنتظره، لا يملك أن يفي بوعد، فالمقدرات حاكمة وحاسمة.

غبنا فترة التجنيد وعبرنا الحواجز النفسية، وعدنا كما كنا ننتظر مساعدة الآباء، وهم يجودون حسبما قدر لهم.

في كل يوم أقف أمام مرآتي أنظر وجهي الذي تغضن، أبحث عن ذلك الفتى الذي كنته، فلا أجد سوى هذا الرجل الهرم الذي ثقلت على أكتافه الحمول، ولا يزال القادم يحمل المزيد.

الصور تجسد لي الماضي وأحداثه، تحملني عبر الزمن وتعيد عجلة العمر للوراء، فأعود بينهم من جديد، لا عمر لي سوى هذا العمر، هذه صور الأصحاب أيام المدرسة، الأبيض والأسود ألوان مخلصة لوقتها ولمشاعر أصحابها.

حفظتنا الأوراق المصقولة، وفرقتنا الحياة في دروبها،لا ندري أهو من حسن الحظ أم من سوء الطالع أن كنا على أبواب التجنيد قبيل العبور.

هذه صورة لنا ورفاق الحرب على دبابة كانت من غنائم الحرب، ولا تزال هذه الدبابة في المتحف الحربي، يأتيها تلاميذ المدارس ورحلات الأسر يلتقطون عليها الصور، أما نحن والتضحيات والدماء والحرب، فقد تبعثرنا بين المعاهدات والمؤتمرات والوسائط والدسائس.

بقي راضي عن يميني، أقرب الأصدقاء لي، صديق العمر الغض، طفولة الشوارع الحنونة، ودفء اللعب في أيام البرد، ومشاكسات وعناد، وفرح، نبتة الرفقة تتجذر، تسري في الدم، تغدو وشائج قرب، يؤكدها القدر، نترافق وقت الشدائد، يطول بنا الوقت بعيدًا عن الأهل مجندين في انتظار قرار يحركنا أو وقت يطلقنا، فنخرج في اجازة نمرح ثم نعود.

خضنا الحرب، وأصيب بعضنا ومات منا رفاق وصحبة، لكننا فرحنا بالنصر وغنينا، وسرنا في الشوارع التي شهدت طفولتنا بفخر،

نحن الجيل الذي عبر، وحقق الحلم.. نحمل مزيجًا من حكايا وأوجاع وأفراح وأحزان، في انتظار قادمين بعدنا نعلمهم، كما علمنا من سبقنا.

أنهينا التجنيد، بمشاعر مختلطة ومتناقضة، وانتقلنا ننتظر فرص العمل بوظائف حكومية، تأكل النهارات أحلامنا، ويأكلنا الليل حين نترهل على المقاهي، تفقد بطولاتنا بريقها بالتقادم، ويغيب مستمعيها في زحام الحياة، نتفرّق بحثًا عن دور بطولة جديد، ثم نعود نلتقي على الحكايا، نتزاور كالأهل نلتمس الحميمية والمحبة، كالعطشى للحب نبحث عن الحب وكنوع من محاولات إثبات الفحولة نغوص في ممارسات الجنس.

صار لكلّ منا أسرة هو ربها، و بقيت منا صورة تؤرقني، تذكّرني دومًا، بذلك اليوم الفارق، يوم ضاقت بنا الحياة، وتساقطنا على أبواب المطارات، لكلّ منا قصة سفر، وتلتقي قصصنا عند نقطة واحدة نحن أبناء الجيل الواحد.

جمعتنا الحروب وفرقنا السلم الذي عقدوا له الاتفاقات والمؤتمرات، وعقدنا في زمنه عقود العمل والزواج والإنجاب، كما خرج وطننا لسوق الانفتاح، الذي أعاد تشكيل الحياة وغيّر أنماط المعيشة، فتجاوز الزمن بطولاتنا، التي غدت مجرد حكايات نجترها، حتى زاحمنا حكاؤون جدد، يروون عن بلاد مختلفة وشعوب مختلفة ويأتون بالجديد من الأدوات

والسلع، ويدخنون سجائر غالية ومستوردة، كنا نجاهد أنفسنا كي لا تجرفنا المغريات، ونعود لبيوتنا مساءً، لنجد حكايا أخرى على ألسنة الزوجات وفي عيون الأطفال.

"وماذا لو سافرت سنة إلى تلك البلاد التي يسافرون إليها ويعودون محملين بسلع وهدايا؟" كان الواحد منا يسائل نفسه، ويراوغ صلابته في البقاء، سنة واحدة ليست وقتًا طويلًا، نعود بعدها بمدخرات تساعدنا على تكاليف الحياة التي لا تتوقف عن الارتفاع.

سافر راضي أولًا مرافقًا لزوجته التي كانت تعمل بالتمريض، غاب عامًا، وعاد لنلتقي، ويعرض علي أن يساعدني في إيجاد فرصة للسفر والعمل هناك، حيث هو وأسرته.

كيف وجدت نفسي على باب الميناء الجويّ، ثم غريبًا في بلد غريب يبحث عن عمل، ليسدّد دين ثمن تذكرة السفر وتأشيرة الدخول، وإيجار سكن يتراكم، حتى أجد العمل.

يمر بك العام الأول في غربتك صعبًا وكئيبًا، وبلا مفر حيث أحكمت الالتزامات عليك حصارها، حتى إذا ما أنهيتها، وعدت بشوق في إجازة لبلدك وبيتك وأسرتك، غدوت كالغريب بين أهلك، ووجدتهم رغم الشوق، ورغبة القرب قد اعتادوا الحياة من دونك، أصبح وجودك

لتلبية طلبات المحيطين بك، تمضي الأيام سراعًا؛ لتعود عامًا آخر في الغربة.

ومن عام لعام تكون قد اعتدت الحياة بشكلها الغريب، وشاركت أهلك استحسان الغياب والتلذذ بوهم الشوق.

ثم أنت تجد لذة في مبرر التسرية عن النفس بتجارب الحب التي ترى فيها تجدد وانتعاش للقلب، وتضع الحياة أمامك الفرص فتتشابك العلاقات والتجارب .

هاهي صورة عامي الرابع من الغربة، كنت عائدًا من السفر أحمل رسالة لأسرة صديقي، قابلتني سميحة أخته، تلك التي كانت صغيرة وتزوجت، هاهي ذي قد صارت مطلقة، عادت تعيش مع أمها بعد موت الأب، هل كان من الطبيعي أن يغمرني ذلك الاحساس المريح لوجودها، ما الذي يجعل الدماء تتجدد في شراييني، وتنعكس على وجهي، وتمنح عيني بريقًا أنا الرجل المتزوج الذي عوده الاغتراب أن يعود إلى بيته بعد غياب بمشاعر أوشكت على الفتور، أبحث عن حب الطفولة فلا أجد سوى تجربة بريئة مرت، وهذه السيدة ليست تلك الطفلة التي كانت، التي أمامي الآن أنثى تستدعي الغرائز والحواس بكل ما تملك من نداءات الرغبة.

تكررت زياراتي بمبررات مختلفة طوال فترة إجازتي، كنت حينها متزوجًا من أم حازم بعد انفصالي عن زوجتي الأولى، وقتها كان حازم يوشك أن يخرج للحياة، وتعلّلت لنفسي أنني أذهب بحكم أنني أرد الجميل؛ لمواقف صديقي.

كنت مدفوعًا بتوهج القلب من جديد، القلب الذي يدفعك لانتظار عودة تلتقي فيها عزيزًا يعيدك شابًا، بعدما نهشك غول الحياة الاعتيادية.

كبرت النبتة بتكرار الاهتمام، صرنا نلتقي في كل مرة أعود إلى الوطن، لعب القدر دورًا فاعلًا حين ماتت أمها، فأصبحت وحيدة.

تحولت زياراتي العلنية والمتعللة بالتواصل مع أسرة صديقي إلى زيارات سرية ولقاءات بعيدة، في البداية أنا لم أخرج معها عن طور الحب العذري، ولا أدري إن كانت هي تبادلني نفس المشاعر أم أنها كانت تجد في لقاءاتي صحبة مؤنسة.

صرت أختلق الأعذار، كي أقضي معها يومًا كاملًا، وأعود لبيتي بمشاعر فاترة، أسافر وأعود أتمنى أن تتطور علاقتي، فلا أجرؤ على التقدم خطوة، ما الذي يقف حائلًا بيني وبينها، وقد فتحت السبل كلّها.

حين عدت بعد ولادة حازم ابني بشـهور، لم أكن قد رأيته، وكنت قد عقدت العزم على أن أنتقل بعلاقة حبي لســـميحة إلى مرحلة جديدة، وأعددت خططي، كي أتزوجها، وأحملها معي.

- سـأصـارح راضـي بالحقيقة، سـنسـافر معًا، وحين أعود لزيارة أولادي ستكونين في بيت أخيك.
- ولكن...
- ماذا بك؟ كنت أظن أن ذلك القرار يسعدك، ستكونين بصحبتي وقريبة من أخيك
- أنا عايزة أصارحك بحاجة

لفنا صمتٌ طويلٌ بحساب خشية المفاجآت غير المتوقعة، كلانا لا يجرؤ على قطع الصمت؛ خوفًا من فعل ورد فعل.

- أنا حامل يا حسين
- ولكن أنا...
- ليس لي سواك تخلصني من مصيبتي، أرجوك لا تتخلى عني فأضيع.

دارت بي الدنيا، ولم أجدْ حديثًا يصـــلح لمثل تلك الحالة، غير أن أتركها وحدها وأمضي...

مرت أيام، لم أذقْ النوم، كنتُ على وشـــك أن أنهي زيارتي لبلدي وأعود،حين جاءني اتصـال من سميحة، توسّلت حتى أكون إلى جوارها في ما هي مقدمة عليه، ولم أكن أعرف ماالذي تنوي فعله، كنت أظنها ســتتخلص من حملها بإحدى الوســائل المعروفة؛ لتواصــل حياتها بلا مشكلات.

كنت أجادل نفســي في ما يمكن فعله، تمثّلت أمامي المواقف كلّها، التي مررت فيها مع صديق عمري، كل الأزمات والأخطار التي واجهتنا وتجاوزناها، شـرف البطولات التي خضـناها سـويًا، كيف لي أن أكون سـببًا في ضـرر، يصـيبه أنا الذي افتديته ذات يوم، وحملته مسـافات جريحًا لإنقاذ حياته، وهو الذي يرعى الجميل، ويصـونه ويقوم مقام أخ لي.

اعتصرني الجدل،حتّى حسمت أمري ألّا أكون ندلًا، وأنْ أنقذ ما بقي من علاقتي بصـديق عمري، وألّا أكون سـببًا في فضـيحة تناله مهما كانت النتائج، ومهما تحملت من أعباء.

لم يكن لدينا حلولًا، سـوى أن تنتقل سـميحة إلى مدينة أخرى، حتى لا ينكشـف سـرها، وأن أعقد قراني عليها، كي يكتب وليدها باسـمي.. هكذا فعلت.

كان ذلك صدمة لصديقي، الذي لم يكن يعلم شيئًا عمّا حدث، سوى أن أخته اختفت، ولا أحد يعرف أين هي، حتّى أنا حين عدت لزيارتها في البلد، الذي أودعتها فيه لم أجدها، هل هي على قيد الحياة، أم حدث لها مكروه؟ لم أعد أعرف..

عدت إلى عملي، كنت أتحاشى لقاء راضي، أخشى أن تبوح له عيناي، سئمت العلاقات العابرة، حتى الجنس سئمته، بت لا أرغب في معاشرة أنثى، تخليت عن عادات التسرية والمرح ولزمت غرفتي والمسجد، أنا لم أكن مواظبًا على الصلاة من قبل، لكنني وجدت فيها راحة نفسية وسببًا للخلوة.

إذن ماذا تعني الحقيقة لابني؟ أن يبحث عن أخت لن يجدها، أن يرى تلك التي تحمل اسمي، أن يعرفالأسباب، التي دعتني أن أتزوج أخرى بعد أمه.

وماذا تعني تلك الأسرار له، هل يكفل تلك البنت، التي ربما صارت عروسًا الآن، هل تغفر لي تلك البنت، هل تغفر لامها؟

تلك أمانة الأسرار هل نخونها؟ حقًا أنا لا أعرف سبيلًا إليها تلك الأم، التي ولدت بنت باسمي وغابت، لا أدري أين اختفت.

أكنت ندلًا حين أخفيت سرها؟ أم كنت أخشى غضب راضي عليها ربما قتلها، وقتلني وضاعت الأسرتان.

ملعونة تلك الأوراق الرسمية، التي تنهشنا وتنبش في حياء ماضينا، وتكشف أسرارنا التي أخفيناها عمرًا، ثم هي تعيدها، لتعيدنا نبحث ونفتح الجراح.

توترات حازم

تجادلني نفســـي اللوامة، وتدللني غرائزي البشـــرية، والليل محرض ومثير لرجل مشـحون بما يكفي ليسـبح بخياله في بحر اللذة، يتوق إلى نيل مالم يصل إليه في الواقع بعد استثارة واستفزاز لمشاعره.

وحدي..بلا رقيب ولا حواجز تمنعني عنها، كأي امرأة أخرى أصـغر ســـنًا، وقد اســـتيقظت مشـــاعري بعد طول غياب، لعلني أرتوي ولو بالخيال، وأتمثّلها تتحرّك حولي بقميص بنفســـجيّ يشـــبه ثوبها، الذي تركتها به، تأتيني على مهل، تداعب خيالات شهوتي، تلمسني، تتحسّس جسـدي، وتفرش شـعرها على صـدري، وتفتعل الهدوء فتثيرني، أعريها بحواسي وخيالي وأفعل بها ماشئت، وكأني أسمع صراخ نشوتها، أفيض حتى أذوب جوارها، فإذا ما غفوت قليلًا داعبت أحلامي، فأعيد الكرة، ثلاث مرات في ليلة واحدة، أنا الذي كنت قد زهدت في الجنس، وكل محاولاتي في لقاءات العبث الجنســـية بفتيات باءت بالفشـــل، آخرها محاولة محمود صديقي التسرية عني بعد زواج حبيبتي، ووعدها لي أن لن ينـالها هذا الزوج، ثم رؤيتها فجأة تســـير بجوار زوجها بملابس الحمل.

كرهت حينها النسوة الحوامل وأصبح الغثيان يصيبني، كلما رأيت واحدة منهن ببطنها المنتفخ، كرهت المشاعر الرومانسية واشتهاء اللقاء بفتيات يقاربنني في السن.

نصحني صديقي بزيارة طبيب الذكورة، الذي فحص أعضائي وطلب بعض التحاليل الطبية واختبارات الأوعية الدموية والأعصاب، ثم أخبرني أن لا شيء عضوي، يمنعني من الممارسة الجنسية،وأنني ربما أمر بضائقة أو اكتئاب أو حزن أو مشكلات، و أنني ربما احتاج زيارة طبيب نفسي، ولكني أهملت زيارة الطبيب النفسي كوني أبحث عن عمل، وليس لدي عائد ماديّ يكفي تكاليف المعالجات النفسية، تناسيت الموضوع؛ فنسيته.

حتى ظهرت تلك الأنثى التي تكبرني بخمس سنوات أو أكثر، لتعيدني لفراش مبتل ولزج وملابس امتزجت بالعرق وروائح الشهوة، وشوق لموعد لقائها.

الآن، عليّ أن أسترخي وأهدأ، وأنعم بآثار اللذة، ربما غفوت حتى الموعد المحدد لها، فالصباح قد أشرقت شمسه فعلًا.

نم الآن يا حازم..فأمامك يوم غامض ينتظرك، وسيدة غامضة استحوذت على مشاعرك، ستذهب للقائها عقب ليلة حمراء قضتها بين

أحضان رجل آخر دفع لها أجرتها، امرأة داعرة مهما كانت أسبابها..هي داعرة.

لكنني سأذهب لإحضارها في الموعد، ربما تعرضت للخطر، ثم أنّها تركت تلك الحقيبة في سـيارتي، وأوصـتني.. والأرقام التي تركتهامعي! ماذا لو حدث لها مكروه! ماذا لو ماتت بين أحضـــان الرجل! ماذا لو مات هو! وتعرضت هي للمساءلة؟!

دع عنك التسـاؤلات والتبريرات، لا تعكر صـفو الاسـترخاء بعد اللذة المصطنعة، ونم بهدوء.. نم الآن.

سميحة

أنا سـميحة محمد راضـي، قررت أن أسـجّل يوميات من عمري، أكتب عن الأحداث، عن الناس، الفرح، الحزن، الحب، أكتبها من دون خوف أو قلق، أزيدها كلّ يوم سـطورًا، وأخفيها إلى ماشـاء الله، وحين ستكون هذه اليوميات بيد أحد، سأكون قد رحلت إلى عالم آخر.

لا تتعجبوا يا سـادة من صـياغتي لمذكراتي، فأنا لسـت على قدر ضئيل من التعليم والثقافة، مثلما يشي مظهري، أنا سليلة أسرة مستورة الحال، تفتّح وعيي على أب ينتقل من حرب لحرب، وكأنّ المعارك قدره، نحتت وجهه من صـخر، وصـقلته بصـورة رجل مهاب، محارب عركته الحياة بكل مافيها من شـدائد وحروب وهزائم وانتصـارات وانتكاسات.

أخي الأكبر سعيد لم يكن يشبه أبي في شيء، تلقّى تعليمه، وأعفي من الخدمة العسكرية، واستقل بنفسه بعيدًا عن أسرتنا، أما أخي الثاني راضـي فهو الأقرب إلى قلبي، وقد ورث صـفات أبي وهيبته، وكما كان أبي محاربًا، كذلك كان راضـي، اختصـه القدر بالتجنيد قبيل حرب أكتوبر، فحارب وعبر وحمل بطولة العبور والنصر، كذلك كان صديقه الأقرب حسين المصري.

- من أين إذن أبدأ أحداث حياتي؟

في البداية دائما نحتار، كيف نبدأ؟ وأي اللحظات الفارقة سنتخذها نقطة انطلاق لنسترسل بعدها، وأنا أحمل من اللحظات في رحلة الحياة نقاط فاصلة، فبأي منها أبدأ؟

هل أبدأ من لحظة صحوة الوعي بقبلة، أم من لحظة بتر شغاف اللذة؟ هل كان زواجي وفشلي هما الخط المفصليّ في رحلتي، أم أنّ حملي لثمرة وقت عابر وضعني على الخطوط الفاصلة، ورسم مسار حياتي البائسة، التي أعانيها حتى الآن، وتعانيها ابنتي دونما ذنب.

كلّ ما ذكرت كان متاهة عُمْرٍ دوائرها ملتفة حول بعضها، وأنا أسير مع التفافات الدوائر بلا مخرج.

سأبدأ من نقطة البداية، القبلة البكر الطفولية حين كنت أنا وحسين نلتقي صغارًا، نتقارب.. نتلامس ببراءة، نكبر قليلًا، تكبر معنا مشاعر جلودنا باللمس، نستعذب القرب، ولا نفسر السبب، وكلما ازدادت عذوبة اللمسة أدمنا الفعل.

كنت قبيل مشارف أبواب المراهقة في نهاية المرحلة الابتدائية، أما حسين فكان رجلًا في صورة صبي، يكبرني بسنوات.

اعتدنا القبلات المسروقة في عجالة نزول الدرج، حتى وشى بنا من رأى، لم يؤاخذني أبي ولم تعنفني أمي، وإنما ترك الأمر للتشاور العائلي، وتوالت القرارات العائلية المختلطة.

منعت من الخروج بمفردي، ومنعت من مخالطة أولاد الأقارب، وتمّ تكليف أخي راضي بصحبتي حتى باب مدرستي ذهابًا، وإعادتي إلى البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي.

وجاء قرار جدتي قاسيًا، لا أدري كيف أقنعت به أمي؟ وصدر القرار، وتم التجهيز لتنفيذه بتكتم؛ إذ حضرت جدتي ذات صباح قبيل استيقاظي، كانت بصحبة سيدة غريبة ترتدي جلبابًا أسود،أُغْلِقت النوافذُ وأُسْدِلت الستائر، وتم الختان في سرية.

لم أبك ولم أفهم حين قالت جدتي لأمي: أنّ ذلك ضرورة لحمايتي، وضعوني بعدها بالفراش أيامًا قدموا لي الحساء والدجاج حتى تعافيت، كانوا قد جاءوا بشهادة طبية أنني أعاني من نزلة برد حتى أعفى من الذهاب إلى المدرسة.

عدت إلى مدرستي، وقد تبدلت، لم أعد أنا تلك الفراشة التي تقفز بمرح، غاب عن صوتي ذلك العبث الطفولي الرنان، وغلفه شجن رصين.

غاب حسين عن مسيرتي أنا وراضي إلى المدرسة، وصحبني راضي وحده حتى باب مدرستي، وأنا أعلم أنه يراقبنا عن بعد، حتى إذا اطمأن أخي بدخولي المدرسة، التقيا ليكملا السير إلى مدرستهما.

كبرنا بلا تواصل، وتفرق كل منا في طريق، أكمل حسين وراضي تعليمًا جامعيًا، جاءت من بعده سنوات الخدمة العسكرية، أتممت خلال غيابهما تعليمًا فوق المتوسط وتخرجت من المعهد الصحي وتخصصت في التحاليل الطبية، ولم يُسمَحْ لي بالخروج للعمل، رغم حاجة سوق العمل لتخصّصي بالداخل والخارج، جاءني عرض للعمل بإحدى المستشفيات بالكويت، حيث يعمل أخي سعيد، الذي رأى حينها أنني لو سافرت، ربما صادفت هناك الزوج المناسب، أو حتى تحملت نفقات زواجي من خلال ما أدخره من عملي، وأؤمن لنفسي حياة طيبة.

أخي سعيد كان يرغب في أن يرفع عن نفسه مساهماته المادية لمساعدة أبي في تكاليف زواجي.

رفض أبي كان قاطعًا، تباعد بعده تواصل أخي سعيد معنا، ثم تزوج ولم نكن نراه إلا نادرًا، حتى نسيت أن لي أخًا أكبر، أصبح راضي هو السند لأسرتنا، وهو صاحب الكلمة بعد أبي.

البنات للزواج والبيت، هكذا قرر أبي، وتوالى الخُطّاب حتى تم اختيار من استحسنوا خلقه، وكان الأقدر على تكاليف الحياة.

تزوجت بمن لا أعرفه، رجل طرق الباب، وطلب الزواج ضـمن من تقدّموا لخطبتي، جاءت به الصدفة في عودة من سفر باحثًا عن زوجة، بعد أن أتمّ تكاليف الزواج، كان مناســبًا كزوج لفتاة لم تر من الرجال سواه.

قبلت الزواج، حاولت التأقلم مع الحالة، قلت لنفســي هكذا تزوجت أمي وهكذا كان زواج جداتي، كن لا يختلطن ولا يعرفن رجالهن إلا في الليلة الأولى، وربما تلصصن من خلف النوافذ، لترى الواحدة منهن رجلًا سيأويها بعد ساعات بين ذراعيه.

الخوف كان سيد اللحظة ورفيق الليلة الأولى، فأسدل جداره الجليدي الفاصـل، لم أعرف طعم القبلة الناضـجة، ولم تؤجج مشـاعري، واللمس كان شوكًا، والعناق اختناق.

شهور من العشرة لم تبدل الحال، عدت إلى بيت أبي، مكثت سنتين حتى تحررت من القيد، فضــلت البقاء بجانب أمي، بعد زواج راضــي وسفره، وموت أبي.

أين كان حسين حين اختاروا لي زوجًا غيره؟ الحقيقة لم يكن حسين مرفوضًا، و لم يكن –أيضًا – منتظرًا.

حســـين رجـل حـديـث التخرج ينتظر الانتهـاء من أداء الخـدمـة العسكرية، ومن بعدها ينتظر فرص العمل.

ماذا يفعل رجال حاربوا، وحققوا النصــر، وعبروا، وحملوا الأوســمة والنياشين، ثم خرجوا للحياة المدنية، فداهمهم زمن الانفتاح؛ حاملًا سلعه ومتطلباته وسوقه النهمة، متطلباته التي تنهش الدخل الشهري، وتقصر اليد عن متطلبات الأسر.

سافر راضي، وتبعه حسين وغيرهم، بقيت وأمي نحيا على الرسائل، تبدّل الحي والجيران، تبدّلت طبائع الناس، تفتّت البيوت وانقســمت بين الورثة، حاول أخي ســعيد اســتثمار بيتنا وتحويله لبناية عالية، راضــي فضّل أن يظل بيت العائلة كما تركه أبي.

اشـترى راضـي نصـيب أخي سـعيد، بما جمعه من كده في الخارج؛ ليضـمه على نصـيبي ونصـيب أمي، بقي بيتنا الصـغير لم تنهشـه كتل الطوب والأســمنت، لكنّه اختنق بحصــار الحوائط وارتفاع الجدران من حوله.

يسافر راضـي، ويعود في زيارة سنوية، يراسلنا ويرسل لنا الهدايا مع رفاق الغربة، أصـبح حسين زوجًا وأبًا، يأتي لزيارتنا وحده يحمل رسـائل أخي راضــي، يجلس بيننا، يســتمع لأمي، ويحمل ما نشــاء إلى أخي، يرحل ويعود كما راضي.

تموت أمي فتنهشني الوحدة، بعد تفرق رفاق الطفولة وجيران العمر، الذين تبدلت بيوتهم.

الصدف دهشة تغزو قلوبنا، تأخذنا إلى حيث تنتظرنا أقدار، وتتركنا نكتشف التفاصيل، تلك التفاصيل المحملة بالشخوص والأحداث.

هكذا كان مجيء وجدي إلى حينا في إحدى البنايات العالية، التي حلت محل بيت مواجه لبيتنا.

تغدو جلسته بجانب الشرفة مشهدًا يوميًا منعكسًا على زجاج نافذتي من أعلى يؤنس وحدتي، وفي كل يوم تقترب المسافة يصبح وجهًا مألوفًا لي..أنتظر قدومه كلما غاب عن جلسته المعتادة، بل أنني كنت أصطحب وجهه معي، كلما غبت بعيدًا عن المشهد المنعكس، حتى أصبح طيفًا يلازمني، يعيش معي في بيتي، بت أطمأن إلى هذه الشراكة الآمنة.

لماذا – إذن – لا نتشارك تفاصيل الحياة، أجرب ذات صباح أن أجلس؛ لتناول قهوتي في مواجهة مرآة نافذتي، فأراه يتناول قهوته، ربما كانت صدفة، فلأجرب مرة أخرى في وقت آخر.

أعدّ طعام غدائي، وأضـعه على طاولة، أمام نافذتي فأرى صـورته المنعكسـة على زجاج نافذتي، وقد أعدّ طاولة طعامه، أغيب في قضـاء لوازم بيتي، وأعود أطمئن على وجوده المنعكس على زجاج نافذتي.

تتبدّل الفصول، ويحل الشتاء، يصبح اغلاق النافذة أحيانًا ضرورة، أفتقد المشهد، ولا أفتقد الطيف، الذي يلازمني داخل بيتي.

صـباح شـتوي ذاك الذي حملني على التسـوق من أحد المتاجر أتجول بين رفوف البضـائع، لأجده مجسدًا أمامي، يلقي تحية الصباح، و يلازمني حتى أنتهي، يدعوني للفطور بمقهى قريب، ألبّي دعوته بلا تردد.

وكأنها ليست المرة الأولى التي نجلس فيها سويًا على طاولة طعام، تتكرر اللقاءات، حتى تصبح اعتيادًا، يلقي ضبابه على مشـهد زجاج الشرفة، فيغرب رويدًا رويدًا، حتى يزول، يتجسّد الطيف رجلًا، وتتحوّل الخيالاتُ إلى وقائع يومية.

أصبح وجود وجدي في حياتي ضرورة، يتسلل في هدوء ولا أحد يراه يدق بابي بلطف ويمكث معي وقتًا، نتشـارك في الطعام والتنزه في المنتزهات البعيدة، ونعود وأنا في مرح لم أعهده بنفسـي من قبل، استطاع وجدي الاستحواذ على مشاعري، وبات لدي تفاصيل من أسرار الحياة، وددت لو أجد من أبوح له، لا صـديق لي أطمئنّ إليه سـوى

حسين، الذي تتكرر زياراته لي، كلما عاد من سفره، حاملًا رسائل من أخي، وكلما جاء وجالسني أشعر أن لديه هو الآخر، ما يود البوح به، كان حسين قد تزوج للمرة الثانية بعد فشل زيجته الأولى.

في كل مرة، ألمح ترددًا وتلعثمًا عن البوح، ثم ينصرف تاركًا استفهامات عالقة، أنا أيضًا أتلعثم كلما أردت محادثته، والبوح له بشأن متغيرات حياتي، وكلما عاد حسين ازداد ودًا أحببه من فعل القرب وعشرة العمر وصداقة الأسرة.

غافلتني المشاعر وألقت بذرتها في أحشائي ذات ليلة، حملت ثمرة اللحظة وبت حائرة، في الوقت الذي تعلّل وجدي بضرورة سفره للعمل وغاب، كيف أتصرّف وماذا لو علم أخي؟

لا حلّ سوى الهرب، أهرب قبل عودة راضي، لا أود أن يتلوث تاريخ أسرتي بفعلتي، لكن إلى أين وكيف أتدبّر حياتي؟

لم يكن لدي حل سوى مصارحة حسين بالأمر، يأخذني حسين لقرية بعيدة يعقد قراننا في سرية، حتى تكون لدي ورقة تساعدني في تسجيل مولودي، يستأجر لي بيتًا، ويترك ما يكفيني من مال، ويمضي يعدني بأن يعود إليّ، كلما جاء في زيارة، وحين عاد في الزيارة التالية، طلبت أن يطلقني ففعل، ترك بيدي وثيقتين ومضى واعدًا أن يزورني كلما عاد من سفره.

لكنني قررت أن أبدل مكاني الذي اختاره لي، حتى لا ينكشف أمري ولو صـدفة، ورحلت إلى بلدة أخرى في جنوب الجيزة، أسـتأجرت بها بيتًا، وزرت مكتب خدمات يوفر زيجاتٍ وفرص عمل للبنات والنســـاء مقابل شـهرين من الراتب في حال العمل، وهدايا ومنح وفق نوع الزيجة في حال الزواج، طلبت عملًا مناسبًا، وعملت في إحدى المستوصفات الخاصـة القريبة من سـكني، وأصـبح لي جيران آخرين يعرفون أن لي زوجًا مسافرًا دومًا، هكذا أضمن ألّا ينكشف أمري، ويخسر أخي صديق عمره.

جاءت ابنتي سجلتها باسم حسين المصري كأب، وعُرِفتْ هنا باسم رضا لم يعرف حسين عني، ولا عن تلك البنت التي كُتِبت باسمه شيئًا، ربما جاء لنفس المكان الذي أودعني به ولم يجدني، ربما بحث عني، وربما لا.. أما أنا فقد أوجدت من جيراني أقارب، واصـــطنعت لابنتي عائلة من خالات وبنات خالات، باتوا بفعل العشـــرة والزمن أقارب، و كنت فيما مضـــى أرتدي النقاب، وأذهب إلى حينا القديم الذي تبدل، أطمئن على أخواي وعلى حسين، لم تمض سنوات قليلة حتى تبدل بيتنا الصغير، الذي قاوم الزلزال وبقي، لم يصمد أمام غزو الكتل الأسمنتية فتبدل، ومن وقتها غاب عني مكان أخواي، كما غاب وجود حســـين، كبرت ابنتي وأتمت تعليمًا متوسطًا، وخرجت للعمل.

وعن وجدي الذي غاب فجأة منذ حملي، وتفقدت أخباره عن بعد فلم أعثر له على أثر، ولم أكن أعرف حينها إن كان حيًا أو ميتًا، فشـــغلت بحل مشـــكلتي بنفســـي، ولم يكن لدي خيارات للتفكير في حلول أخرى سوى الهرب الذي وضع الحد الفاصل لتلك العلاقة.

ســـنوات في مكاني البعيد، ولدت ابنتي، وكبرت من دون أن يعرف أحد قصتنا الحقيقية، حتى كان يوم رحت أتفقد أخبار أسرتي بعد مضي ســنين، وأنا أضــع نقابًا يخفي وجهي، خرجت يومها من الحي ولا أدري أن هناك من يتتبّعني، ينتقل معي من حافلة إلى أخرى حتى وصل إلى مكاني..وكان وجدي.

كانت ابنتي حينها في المرحلة الثانوية الفنية، جاء ظهوره في حياتي نقطة تحول حين قرر أن يعيش معي في الســكن نفســه، فقبلته حتى لا ينكشــف ما ســتره الزمن، تم عقد قراننا، ولم أخبر الجيران بالحقيقة، بل أخبرتهم أنــه زوجي الــذي غــاب زمنًــا رهن الاعتقــال في العراق، وعــاد لكنني لم أســـــتطع أن أقنع ابنتي أن هذا الرجل هو أبوها، فانتقلت بعد تخرجها؛ لتعيش مع سيدة نعدها ابنة خالتها وتعلّمت العمل بمهن شتى؛ لتعول نفسها.

أما هو فلا أعرف له عملًا لكنني أرتاب منه، يغيب ويعود، يمضــي أيامًا بعيدًا، يخفي أكثر مما يظهر، ليس هو الشــخص المدهش نفســه،

الذي قابلته يومًا، وأذهلني واســتحوذ على مشــاعري، وكأنّه خلع قناعًا عن وجهـه، وأظهر وجهـه الحقيقي.. أم أنّـه، كـان حقيقيًا وتبـدل بفعل الأحداث والزمن؟

أوقات عزيزة

"حلو المكان هنا.. حلوة مصـــر الجديدة!... حلوة وشـــوارعها واســـعة وعماراتها جميلة مش طوب مرصـــوص وعالي لفوق، تحس إن اللي خططها كان عايز الســما مكشــوفة ومتشــافة، تصــدق أنا أول مرة آجي هنا مصــر الجديدة، التاكســي اللي جيت فيه هارجع معاه تاني الجيزة، مش ميدان الجيزة لا، دي بلد صغيرة في جنوب الجيزة اسمها أبو النمرس".

- تعرفيه؟
- ميدان الجيزة؟ آه أعرفه..
- أنت..تعرفي السواق اللي جيتي معاه؟
- لا هو بس سـواق تاكسـي ركبت معاه، واطّمنت له، فقلت أرجع معاه أضمن.
- كملي حكايتك محتاج أسمع حكايات

كنت أخرج من قريتنا لزيارة أختي فايزة في ميدان الجيزة، حيث انتقلت للعمل في مكتب الأستاذ هناك، واستأجرتْ سكنًا؛ لتعيش فيه مستقلة عن الأسرة، كانت أمي ترسلني أحيانا لزيارة فايزة بحجة طلب بعض المال منها، لكنني كنت أعلم أنها ترغب أن يراني أحد الخطاب العرب، فأنا الوحيدة، التي بقيت، ولم أحصل على زوج أو عمل.

ذات يوم جاء زاهد بصـــحبة صـــديقه الخليجي الباحث عن زوجة مصـرية، تعرّف علينا، وطلب بعض الخدمات ولم تكن أختي تقدم مثل تلك الخدمات لعملائها من قبل، فشـــرح لها كيف تقوم بتوفير خدمة اسـتئجار السـيارات والسـائقين، لمن يطلب بدلًا من ذهابهم للمكاتب، وذلك مقابل عمولة مالية كوسيط، كما طلب استئجار سكن.

في المساء دعانا زاهد إلى مقهى بوسط المدينة، حملنا في السيارة التي اســـتأجرها، طلب أن أجلس أنا في المقعد المجاور له، كان يقود السـيارة بنفسـه، جاب بنا شـوارع القاهرة، لأول مرة أرى شـوارع القاهرة وزحامها، صـــعدنا الجســـور فوق النيل، مشـــاهد المدينة هكذا أجمل، تعرفت على الزمالك والجزيرة، رأيت جمال الشوارع المحفوفة بالأشجار، كلما لفت نظري مشـهد أو تمثال وسـط الميدان سـألت عنه، صـعدنا المقطم، ورأينا القاهرة من أعلى، انتهت جولتنا عند مقهى على ضـــفة النيل، هناك.. جلســـنا بعض الوقت، بدا رقيقًا وأنيقًا وممزوجًا بجمال المكان وسـحر مياه النهر وهمس عصـافير الشـجر، التي هجعت بعد عناء يوم، أما أنا فقد عشت شعورًا جديدًا، "هل كنتِ مبهورة بشخصية زاهد؟" لســت أدري هل شــغفت بمفاجآته والعوالم الجديدة التي فتح لي أبوابها، فأخرجني من عالمي البســـيط، أم أعجبتني لهجته المختلفة؟ ونطقه للكلمات التي كان أحيانًا يبدلها بلكنة مصرية، لا تخلو من توابل لهجته في تفخيم بعض الحروف، هو ليس خليجيًا، هو فلسطينيّ بجواز سفر أردني هكذا أخبرنا،لا أعرف سببًا لزياراته لمصر، ولا ماذا يعمل،

لكن بدا لي أنه يملك من المال ما يكفل له الحياة اللائقة، هنا، في مصر.

تكررت زياراتي لأختي فايزة، لا أدري كيف كنت أجد لنفسي حججًا أتذرع بها كي أذهب إلى الجيزة، هناك حيث المدينة تختلف عن بلدتنا الصغيرة، أرى أناسًا مختلفين ولهم طرائق تفكير طورتها الحياة المدنية والوسائل الحديثة، تصحبني أختي كل يوم معها إلى المكتب الذي تعمل به، أحببت المكان، وتمنيت أن أعيش هناك، طلبت من والدي أن أنتقل للعيش مع أختي، وأن أنهي دراستي المتوسطة في مدرسة بمدينة الجيزة.

أنهيت الدراسة، واستقلت أختي بمكتب خدمات يخصّها، لم يستهويني العمل مع أختي في مكتبها، لكنني كنت أرافقها أحيانًا،أما زاهد فقد اعتاد زيارات المكتب عند أختي، كلما عاد من سفر.

لا أعرف إلى أي البلاد يسافر ولا من أين يأتي، حين يعود حاملًا بعض الهدايا لي ولأختي، اعتاد–أيضًا – أن يدعونا على العشاء في أحد المطاعم بالقاهرة، يصحبنا بسيارته المستأجرة؛ إذ يقوم مكتب أختي بتوفير كل الخدمات المطلوبة له في أثناء وجوده بمصر، لقاء عمولة محددة ومتفق عليها، منذ تعرف على مكتب فايزة صارت تعرف مواعيد وصوله من خلال محادثات تليفونية يجريها معها قبيل وصوله، فتقوم باستئجار شقة وسيارة وسائق يكون تحت خدمته طوال مدة إقامته.

فايزة تراقب توترات في أثناء وجودنا بصـــحبة زاهد، وأنا أحتار أينا التي تسـتهويه أكثر، وتمنحه الدافع لصـحبتنا، أما هي فيشـغلها الدافع الذي يضمن بقاء زاهد بصفته عميلًا دائمًا لمكتبها.

أتأمل انفعالاته، هو يبدو مهمومًا مهما انغمس في ملذات الحياة، شيء ما يبدو مكسورًا داخله.

صـحبنا ذات مساء إلى ملهى، لم أكن من قبل أعرف تلك الأماكن، قضـينا ليلة من ليالي أناس لا نعرفهم ولسـنا مثلهم، تعشـينا طعامًا لا يشبهنا، ورقصنا وضحكنا.

فجأة قام زاهد رقص معي، واحتضـنني، طلب أن يتزوجني في نفس اللحظة.

- قولي زوجتك نفسي، قلت:
- زوجتك نفسي

حملنا بســيارته نجوب شــوارع القاهرة بُعيد الفجر، حتى انكشــف النهار، قامت فايزة بمهاتفة أبي الذي جاء وحده، فذهبنا إلى أقرب مكتب توثيق وإشـهار، هناك عقد قراني على زاهد،بعدها قمنا بتوصـيل أبي إلى موقف الســيارات؛ ليعود إلى بلدتنا، كما أوصــلنا فايزة حتى شــقتها، أصبحت زوجته بين عشية وضحاها، كنت في الأمس أراه بموعد، اليوم

بت معه في مكان واحد، :"تقصـــدين ســـرير واحد" هكذا عقب الرجل، أكملت: كان كالحلم يأتي يقضـــي معي شـــهرًا ثم يغيب، يتركني وحدي ويترك لي بعض المال، الذي أعيش منه طوال غيابه.

في البداية فكرت أن أعود للحياة مع فايزة بعد ســـفر زاهد،لكنها تباعدت عني منذ زواجي،لم أكن أعلم أن فايزة لا تقدم خدمات مجانية حتى لأختها، إلا بعد أن أخبرني زاهد بقيمة العمولة التي تقاضـــتها منه مقابل زواجه مني.

خمس ســـنوات مرت على زواجي، كنت أزور والداي وأســـاعدهم بالمال، وأســـاعدهم في نفقات العلاج بعد أن داهمهما المرض، مات والدي وماتت والدتي بعده بشهور، وانقطعت عني أخبار سامية المقيمة في المملكة السعودية، باعت بيتها الذي بنته في بلدتنا، واشترت شقة في ميدان الجيزة.

غابت عني –أيضًـــا – أخبار هناء التي تأتي في زيارات ولا أراها، حيث اعتادت أن تقيم في فنادق القاهرة مع زوجها، صرت وحدي أعيش في ســـكن بســـيط، بما يتركه لي زاهد من مال، فإذا جاء انتقلت للعيش معه في سكن فاخر.

كنت قد تعرفت على سيدة وحيدة مثلي اسمها سميحة، زوجها دائم الســـفر مثل زوجي، جاءت إلى بلدتنا ذات يوم، ونحن صـــغار أقامت

بالقرب منا، كانت تعمل في مستوصف البلدة، ساعدتني كثيرًا في أثناء مرض أمي.. أصبحت السيدة سميحة أختي، التي لم تنجبها أمي، لكنها فضلت أن تكون خالتي، هكذا علمت ابنتها التي تصغرني بسنوات، قالت لها أنني ابنة أختها.

انتقلنا أنا والسيدة سميحة وابنتها؛ لنعيش في بلدة أبو النمرس بعد وفاة والديَّ، أغيب عن شقتي القريبة منها وقت وجود زاهد، وأعود بعد سفره إليها، لا أحد يعلم عني شيئًا في تلك البلدة، ولا حتى ابنتها.

لعلك –الآن – تتعجب من طريقة سردي للحكايات، لكنني تعلمت على يد زاهد الكثير، جاء لي بالروايات والكتب، فتح عيني على حياة لم أكن أعرف عنها شيئًا، تحدث معي في قضايا عامة، ورأيت بعينيه بلادًا لم أرها، لكنني لم أعرف شيئًا عن حياته؛ بعيدًا عني.

غاب زاهد ذات مساء، سافر بعد أن قضى معي شهرًا، كما أول شهر في زواجنا، ودعني ليلة سفره وداعًا مختلفًا لم أفهم حينها أنني لن أراه ثانية، انتظرته طويلًا، سنوات مرت وأنا أنتظره، ذهبت إلى مكتب فايزة الذي اتسع نشاطه وتغير، قابلتها بصعوبة، وأخبرتني أنها ليس لديها أخبار عنه، تركت لها رقم هاتفي، حتى تتواصل معي حال معرفتها أخبار عن زاهد.

كان يجب أن أعمل لأتدبر معيشـــتي، فلم يعد لدي مصـــدر تمويل يســـاعدني على الحياة في غياب زاهد، أخذتني الســـيدة ســـميحة معها لأعمل موظفة اســـتقبال في المســـتوصـــف الذي تعمل به، عملت معها سنة كاملة ثم أُغلِق المستوصف، أغلقته وزارة الصحة لمخالفته الشروط القانونية.

وجدت الســـيدة ســـميحة عملًا في معمل تحاليل طبية، ورحت أنا أبحث عن عمل حتى التقطتني صـــاحبة محل للملابس؛ لأعمل لديها بائعة، في أثناء عملي معها كانت ترسلني ببعض الطلبات من الملابس الجاهزة لمكتب الأستاذ، هي أيضا تعرفه كما كانت فايزة تعرفه من قبل.

هاتفتني أختي فايزة ذات صـــباح أخبرتني أن عميلها الســـعوديّ صـديق زاهد نعى إليها خبر اسـتشـهاد زاهد في أثناء زيارته لأسـرته في فلسطين، صرت أرملة لا أحد يعرف لها زوجًا قبل أن تفقده.

لا أدري إن كان زاهد قد توقف يومًا؛ ليسـأل هل أنا أحببته؟ أم أنني كنت أهرب من واقعي بزواجي منه، لم يسألني عن الحب، وأنا لم أتوقّف لأسأل نفسي، لماذا قبلته زوجًا؟!وكيف كنت أستمتع بالحياة معه؟

حزنت لغيابه حقًا، كلما مر طيفه بخيالي تذكرت غيمة الحزن التي كانت تسـكن في عينيه، أنا –أيضًـا – يسـكنني حزن وقلق لا أعرف مصـدره،أخشـى الحب، الذي يعصـف بالإنسـان، يزلزله ثم يتركه حطامًا

يعيد ترتيب نفســـه من جديد، فيتشـــكل شـــخص آخر غير الذي كان، شخص هو نفسه لا يعرفه.

هكذا أصـبحت أنا، كلما أغرتني قطعة حلوى سـعيت إليها؛ لتمنحني لذة موقوتة وتذوب.. هل تدري أنني لو لم يأســـرني لطفك، وتغريني مباهج قربك؛ لتركتك من أول لحظة، الســائق –أيضًــا – كاد يغويني، شـــيء ما كان يســـتثير مشـــاعري نحوه، لولا ذلك الحدث الذي قطع اسـترسـال الغواية.. ما كنت هنا الآن.. هذه أنا..التي تبدّلت بعد رحيل زاهد، الذي كان أول قطعة حلوى أغرتني وعلمتني أن المذاق الشـــهي موقوت..هكـذا وجـدت في زيـاراتي المتكررة لمكتـب الأســـتـاذ طريق الانتقاء، الانتقاء الذي جعلني –الآن– هنا، ولا أعرف إلى أين يمضـــي بي!

تبدلت أيضًــا أختي فايزة، لو رأيتها الآن لن تصـدق أنها كانت تلك البنت التي أحبت ابن عمها ذات يوم، وحاربت من أجل ألّا تكون لغيره، فايزة الآن، ومن قبلُ، ومنذ تعلمت أن تقول لا، صـارت شـخصًـا آخر غير تلك البنت المسـكينة، التي حاولت بوسـائلها المتاحة أن تقول لابن عمها لا تدعهم يبيعونني كالجارية، وهو لم يكن ســـوى عبد يحاول أن يحصل على ما يبقيه على قيد الحياة، ويقنع بالفتات.

الحب – في هذه الحالة يا ســيدي – ترف لا يملكه الفقراء، فاكهة غالية، وهم –أحيانًا – لا يملكون ثمن الخبز الحاف.

حين قررت فايزة أن تؤمن لنفسها مباهج الحياة، لم يكن لتلك الفاكهة مكان في سلة متطلباتها، عافت شهيتها طعم التفاح الأحمر رغم غواية إغرائه.

ها أنت ذا تتثاءب متململًا! أرأيت كيف أنني أخفقت في جعل حديث الحب بيننا حديثًا مبهجًا!حديثًا يمنحك دافعًا لترك وســـادتك الصماء، وأنا تاركة جلستي على حافة سريرك..انقضى الليل وأنت ممدد تستمع، وبدا نور الصبح يظهر من بين الستائر، و لم تحكِ أنت لي، لم أعرف عنك شيئًا.

- لماذا أنت وحيد هكذا؟ أين أســرتك؟ أليس لك أســرة، زوجة، أبناء، أب، أم؟ أين هؤلاء جميعًا؟
- لا تسألينني عن شيء، وانسجي حولي القصص كما يصورها خيالك، قولي أنني رجل وحيد كســرتني الحياة رغم كل ماترينه من ملذات حولي، أو ربّما لم يحالفني الحظ؛ لأكون محبوبًا ومحبًا، دعي خيالك ينسج حول هذا المكان قصصًا، حولي أنا أيضًـــا وكل ما تتخيلنه ســيكون جزءًا من حقيقة وجودي، أما

الآن، فتعالي هنا إلى جانبي على هذا الفراش، ودعيني ألمس دفء جسدك، لعلني أفيض بالحياة.

وقت حازم

- يا حازم أنا جهزت نفسي أخرج معاك النهارده
- النهارده بالذات مينفعش يا أبي عندي موعد مع ناس رايح أوصلهم
- يابني استنى أنا ناوي أكلمك النهارده بصراحة...
- بعدين يا بابا بعدين

اليوم الاثنين، بداية أسبوع عمل، الشوارع مزدحمة بالسيارات،الإشارات تسرق الوقت، وأنا على موعد مع من سرقت نومي ليلة كاملة، وأتلهف للقائها رغم ما يمكن أن يكون قد فعلته في تلك الليلة، رغم وضوحها في التصريح بما هي ذاهبة إليه، ولا أدري من أين يأتيني اليقين، بأنها ستعود كما جاءت دون أن يمسسها الرجل، أخشى ألّا يسعفني الزحام لأصل في الموعد، ترى هل تتحرك من دوني؟ ولكن كيف وقد تركت حقيبتها معي، وأستأمنتني على سرها، حتى إذا ما حدث لها مكروه أبلغت أهلها.

أسير متعجلًا الوصول، حتى وإن وصلت قبل الموعد، سأنتظر حلول الموعد بأحد المقاهي أوفي أقرب ساحة انتظار.

أمر بطالبي خدمة التوصـــيل، لا أهتم ولا أســـتجيب لإشـــاراتهم بالتوقف، أكاد أصـدم أحد المتسـكعين، هؤلاء الذين يعبرون الطريق وهم يتحدثون بالهاتف، يزدحم الطريق ويضـــيق، ليعود للاتســـاع المكاني وزحام تفاصـــيل المارة والآليات من كل صـــنف، ســـيارات، حافلات، دراجات هوائية، عربات خشـــبية وعربات يدوية ينقل بها الحمالون بضائع.

أمرّ قرب سـاحة سـيدنا الحسـين، أتذكر طلب السـيدة، أن أقرأ لها الفاتحة في الحسين وأن أدعو لها، لا بأس لماذا لا أفعل.

أترك السيارة بساحة الانتظار وأعبر، أدخل المسجد، أتوضأ، الوقت ليس موعد صـلاة فرض فقد انقضـت صـلاة الظهر منذ قليل، لم أصـلها بالبيت، لسـت مواظبًا على الصـلاة، أنا كالبعض الذين يصـلّون وقت الحاجة، كم مرة وبخني أبي؛ لتركي فرض الصـــلاة، كم مرة حذرني من مغبة ذلك.

توضّأت ودخلت، صليت تحية المسجد، ثم توجهت للضريح، وقفت قبالته لأتوســـل بالدعاء، أقول: اللهم..اللهم... ثم لا أجد من صـــيغ الدعاء ما يسـعفني، لم أسـتطع ترتيب جملة واحدة أدعو بها لنفسـي ولا لتلك السيدة.

مرت دقائق حاولت خلالها أن أجد في ذاكرتي شـــيئًا من صـــيغ الدعاء المحفوظة فلم أتذكر، قلبي مفعم بالتوسل والرجاء لكنه لا يفيض بما في داخله، ليس سوى ومضات روحي تشفّ عن سيدة تَفْرِد شالَها فتتســاقط دعواتُ المتوســلين حبات لؤلؤ فوقه، حتى إذا امتلأ الشــال جمعته وعقدت طرفيه على ما فيه ثم غابت.. "هل كان ذلك محض خيال أم غلبتني هواجسي واعترتني الأوهام بسبب قلة النوم؟!"

مكثت دقائق واقفًا بلا حراك، مرت كأنها دهرٌ أعيشـــه في ملكوت آخر، كأنني شـــخص آخر غير الذي كنته، نســـيت الوقت والموعد والسيدة،حتى اصطدم بي شخص يحاول الوصول إلى سياج المقام، وهو يبكي، ويتوسل أدعية، لم أتبينها، أفقت بلكزة من أحد الحراس الذين يخرجون الزوار من الضـريح بين أوقات الصـلاة، خرجت وعيت على أبواق السيارات وأصوات الزحام ونداءات باعة وتوسل متسولون، لابد أن أواصل سيري.

يداهمني قلق مفاجئ، كيف ستكون أحداث يومي!"هل ستعود تلك السيدة؟ أم تراها أودت بنفسها في المخاطر؟ تُرى هل هي معتادة على مثل تلك الزيارات؟ أم تلك تجربتها الأولى؟"

رأسي تعصف بالأسئلة من بعد صفو الوقوف الخاوي من الدعاء أمام الضريح.

أتذكر أنني استهلكت سجائري في ليلتي المشحونة باستجلاب لذة متخيلة، أتوجه لأول بائع على الرصيف أبتاع سجائر وزجاجة مياه، استقل سيارتي وأمضي.

لم أعد أتفقد معالم الطريق وكأن السيارة تعرف مقصدها، تحملني الطرقات من متسع لضيق ومن علو لانخفاض حتى أصل، لايزال لدي وقتًا، سأقضيه في البحث عن مقهى،أحتاج فنجانًا من القهوة يعيد لي توازني، ويمنحني مقاومة لساعات اليقظة الطويلة.

جدال النفس

أتراه فقد الشغف حقًا هذا الذي فتحت على يديه خزانة الأسرار؟ ألن يبالي بعد الآن إن كانت له أخت من دمه لا يعرفها؟ أم أنه شغله شاغل طارئ، فصرفه مؤقتًا عن إلحاحه، وأيا ما كان السبب، سيأتي يوم قريب وأصارحه.

الآن.. وأنا أتوكأ على عصـــاتي في كهولة عمري، أســـير بين منعطفات الشوارع والدروب، حياتي كلها انتقالات، أسفار وعودة، وطن واغتراب، ذهاب ورجوع.

من حي قديم لحي آخر مختلف، ومن بيت عائلي إلى بنايات عالية، ومن جيرة وأناس يعرفون بعضهم بعضًا، إلى أبواب مغلقة على ساكنيها.. "تطورت الحياة يا حسين وأنت لا تزال محلك سر، جادل نفســـك الآن، حاســـبها بما لها وما عليها، واحترس وأنت تتوكأ على عصاتك، احذر أن تسيّخها في الخنادق الصغيرة، التي صنعها التجريف في شـــوارعنا، أو تســـتند بها على نتوءات ارتفعت فوق الأرض بفعل التراكم.. ســـنوات طوال مرت وأنت تخفي الســـر، هل كنت تتخيل أن الأسرار تموت؟الأسرار لا تموت أبدًا، الأسرار تكمن في مخبئها،حتى إذا نبشـــتها يد أو عرتها عوامل التعرية، انتفضـــت واقفة تواجه أصـــحابها..كم تمنيت لو كانت لك ابنة! لو أن زوجة تركت لك بنتًا..

وكم حلمت بتلك الابنة تكبر وترعاك في شـــيخوختك! حتى لو تزوجتْ وتركتك فإنّها تخصص لك موعدًا أسبوعيًا تزورك فيه".

- نعم تمنيت لكني اكتفيت بأبناء ثلاثة، لم أتزوج بعد رحيل أم حازم، حتى لا أواجه رغبة المزيد من الأبناء.
- لكنك عرفت النساء وأحببت، وللمرة الثانية يكون عليك الاختيار بين حبك وصداقة عمرك.
- أحببت؟ كم يتعبني هذا القلب الجامح المتنقل من حب لحب، كلما ضاع حب سكن للخواء زمنًا، ثم استفاق على كشف جديد وخيال جديد.
- كم من النساء سكن قلبك، ولم تسكن واحدة منهن بيتك!ودائمًا كانت لك مبرراتك الواهية، حتى ليلى التي جاءتك في وقتها، وكنت في حاجة لوجودها تركتها.
- كانت ليلى شـــقيقة زوجة راضـــي، قابلتها في زيارة لصـــديق عمري، أحببتها حقًا، وتشـــابهت ظروفنا، هي ســـيدة أتعبتها الأحداث، وتركت ندوبًا غائرة على جبينها، زواج وفشـل وزواج آخر وسفر ومعاناة وتعذيب ثم طلاق دون إنجاب.
- كان يمكن أن تكون أمًا لولديك، ولن يكون لديك مشـكلة المزيد من الأبناء كونها لاتنجب، لكنك تركتها؛ لتكون لغيرك، بعدما يَئِسَتْ من انتظارك سنوات، كنت تعاني شعور الذنب المزمن، الذي خطته على جبينك قصة سميحة.

- وهذه هي قصـــة ســميحة تطاردني، وأنا كهل، وتلاحق أبنائي، أينما كانوا .
- تقصد قصة صابرين؟
- صـــابرين؟ ما هذا الاســـم الغريب على ســـمعي؟ البعيد عن ذاكرتي، ذاكرة حبي لسميحة، لم نفكر أبدًا في هكذا اسم، بل لم نفكر في تسمية أبناء وبنات.
- وهل فكرتما في الارتباط والزواج حتى تفكران في أسماء الأبناء والبنات؟
- أنا واجهت الموقف الصـــعب، واخترت أن أكون على مســـتوى الصديق الحق، الذي يرعى حق الصداقة.
- أنت تهزي دومًا بما كان، تجتر تداعيات ذاكرتك.
- أحاول أن أُبقي على أحداث البطولة طازجة..أن أظل على قيد الذاكرة إنسانًا فاعلًا.
- ولكنك تُنْسَى.. وتاريخك لم يبق منه سوى سطور حكاياتك التي تفقد بريقها، وتصدمها حوادث أقرب وأكثر طزاجة.
- كفى..كفى.. هذيانًا لئلا تتعثر، لم يعد الجسد الهزيل يحتمل.

عد إلى بيتك ياحسين، عش أحلامك وابتهج برؤية جارتك الخمسينية الوحيدة حين تخرج إلى شـــرفتها تطعم طيور الزينة، وتســـقي نباتات الشـرفة، واسـتمتع بمشـاهدة جسـدها، وعش خيالك، وهي ترفع ذراعيها؛ لتتناول شـيئًا من أعلى، أو تنثني؛ لتبدّل موقع كرسـيها أثناء التنظيف،

عدْ يا رجل الحب والشـهوة المسـتعارة، وراجع نفسـك عن حقيقة نسـلك، راجع أسماء أمهات الشهوة فيهم، الأكبر ربما يكون ابن سميحة.

دع حكاية صـابرين تصـنعها الأيام، أنت لا تدري ابنة من تلك التي ولدت لامرأة، ملت الانتظار، وجرفتها لحظة ضعف.

سيد الحكايا

ماذا حدث لهذه السيدة، كيف غابت عن وعيها من دون أن أنتبه لها، كنت أستمع لحكاياتها، فمتى سكتت؟ عند أي المحطات في ذاكرتها توقفت، أم أنني غفوت على حكيها، لأصحو الآن وهي ممددة بجانبي، نائمة أم غائبة عن الوعي..لا أدري، وأنا أجلس إلى جانبها بعد أن أمضينا ليلة معًا، من دون أن أقربها.

لا أدري ماذا أفعل الآن؟ هل أوقظها أم أتركها حتى يعود وعيها لها؟ هي لم تسألني حتى عن اسمي، أنا الذي أستضيفها ليلة واحدة، سترحل بعدها، فلا أراها مرة أخرى، كم سيدة أرسلها لي ذلك الأستاذ الذي لا أعرف عنه شيئًا! سوى رقم هاتفه واسمه دلّني عليه صديق عربي، التقيته في ملهى ليالي الشرق الليليّ بتايلاند، حينما رأى هذا الصديق ولعي بحنان المغنيّة، التي تعمل بالملهى، ذات الأصول المصرية الريفية، جالستنا حنان مرات، فأعجبتني وحرصت على مرافقتها لي في رحلات ترفيهية لبلاد أخرى بعد انتهاء لزيارتي لتايلاند.

كم سيدة جاءت ومضت! كم سيدة حكت فلم تمسني حكاياتها! بت أعرف حكايات حقيقية وأخرى ملفقة، أستطيع أن أفرق بين الأحاديث الصادقة والمزيفة أو المجاملة، فإلى متى أظل أبحث عن ضالتي بين النساء.

المرأة التي تأتيني طائعة تقول:"هيت لك..." ثم تستغرق في شجنها الكامن، وهي توخز ضميري، وتغلق ما دون ذلك من شهوات، فتستغرقني شهوة الحكايات، أستمع وأحكي.

كم وددت أن أبوح لهذه المرأة كما باحت هي من دون حرج، أحكي لها تفاصيل، لم أحكها لسيدة من قبل.

كلهن يأتين ويرحلن ممتنات لكرم رجل، لم يأخذْ مقابل ما أعطى، بعضهن يحاولن بدافع الامتنان، ويرغبن في تقديم المقابل، ولا يعلمن سر عزوفي عنهن، أنا –فقط– مستمعُ حكايات، حالمًا أن أجد حكايتي بين نسيج ذاكرة إحداهن.

أنا سيد خارج من تشابكات عقد الحياة، حتى وصلت إلى هذا المكان، لست ابن هذا المكان، وكل ما بقي في ذاكرتي هلاميات عن بلدة صغيرة وبيت وأسرة.. حتى اسم بلدتي لا أذكره.

خرجت طفلًا ابن أربعة أعوام أو أقل لا أذكر حين اصطحبتني سيدة للتسوق، ربما كانت أمي وربما أخت كبرى، وربما جارة، لا أدري، فكل ما علق في الذاكرة بعض من مشاهد السوق واليد التي تمسك بي وأشياء صغيرة أحملها وقطعة حلوى تسكت ضجيجي وإلحاحي.

كانت تفلت يدي كلما وقفت أمام عربة أو بائع، تختار حوائجها فأظل واقفًا بجانبها لا أتحرك، حتى تنتهي، فتعود تمسك يدي، ونسير منتقلين من بائع لآخر.

لحظة فارقة، تلك التي انتقلت فيها من يد لأخرى، حين سقطت بجواري السيدة التي صحبتني، أتذكر أنها سقطت وهي تنتقي أشياءً تشتريها، كنت متحررًا من قبضة يدها، حتى إذا التفّ الناس حولها ضعت في زحامهم، ولا أدري هل أفاقت تلك التي كانت تصطحبني بعد سقوطها أم أنها غابت للأبد؟

حينها، لم ينتبه أحد لوجودي، بينما كانت هناك يد أخرى لوحت لي بالحلوى والبالون، وأمسكت يدي، ثم انسحبت بي بعيدًا، كان ذلك آخر عهدي بأسرتي، وبكل ما أنتمي إليه منذ مولدي.

ضمّني بيت جديد وبعيد وغريب، اغتربت أيامًا وبكيت ثم التهمتني المغريات: طعام جديد، ملابس مختلفة، لعب، دفء، ممتلكات لم تكن لي من قبل.

غرقت في عالم غطى كل التفاصيل السابقة حتى غابت عن ذاكرتي، ولم أعد أعرف أسرة سوى تلك الأسرة، التي وعيت من نومي بعد عناء يوم وسفر فوجدتها، لا أذكر كم أمضيت معهم هنا، متى رحلت معهم..أنتقل من بلد لبلد، تلاشت كل الأحداث من ذاكرتي وبقي

أنني ابن لتلك الأسرة أحمل اسمها بوثيقة ميلاد، لا أذكر لي اسمًا غير سيد، وربما احتفظوا لي باسمي الأول كما هو، كما أخبرتهم حين سُئِلتْ يومها، ليأمنوا تلعثمي في إجابة النداء.

هكذا شكلتني الأقدار، ورسمتْ تفاصيل حياتي المغلفة بورق الهدايا، في الواقع تشكلنا أسرة نموذجية وثرية، أب وأم وابن وحيد ينعم بمحبة واهتمام، سافرت معهم، أينما ذهبوا، كبرت في بلاد بلا قيود، عاشرت النساء هناك بلا قيود، حتى إذا ما سئمت قيود أسرتي، وتملك سيدتي التي ربتني، تركتهما لأعيش بمفردي مع رفيقة لي، ولم أنفصل عنهما بل كنت أزورهما، وأهتم بشئونهما كابن يبرّ والديه.

مات أبي هناك.. وعدنا به لنواري جثمانه في وطنه، وننهي الإجراءات الرسمية في توزيع تركة أبي، وكما هو قانوني وشرعي بالأوراق الرسمية، فقد ورثت الرجل كابن بشهادة ميلاد وورثت زوجته نصيبها القانوني.

عشت مع سيدتي، التي ربتني كأم وحيدًا، ملكتني تلك السيدة وأحاطتني برعاية واهتمام، لا أنكر أن اهتمام سيدتي بي أسرني، واستسلمت له، بل استمتعت بهذا الاهتمام، الذي منحتني إياه عوضًا يمحو كل أثر لذاكرة العقل والقلب والجسد.

وحتى الآن أنا لم أحك لك ســـري الأعظم، ذلك الذي قلب حياتي رأسًا على عقب وأعادني إلى هنا وحيدًا وغريبًا.

أنت لاتدرين أني شغفت بتك المرأة التي ربتني، كما شغفت هي بي، منذ فقدت زوجها الذي رباني مثل أب، أعطتني كل وقتها واهتمامها، ظلت وصـــية عليّ كابن ورث عن أبيه، حتى بلغت الســـن القانونية، فتسلّمت ميراثي.

فررت من شغفي بها بحجة مواصلة دراستي في بلدان أخرى، قررت أن أغرق في البحث والدراسة.

أنا الآن ألمس جســـدك الغائب عن الوعي في فراشـــي، أحكي لك باسترسال، وأنت تنعمين بالسكون والهدوء، أتأمل جسدك بلا رقابة، ولا أتجاوز التأمل بفعل أحمق، وأعرف أن أسراري مهما بلغت من غرابة لا تعني لكِ شيئًا، وأن أسرارك التي حكيتها، مهما بلغت أفعالها، تمر كما مرت أسرار كثيرة وثقيلة قبلها.

غيبي في اللاشـــيء المبهم- أيتها الســـيدة- بأمان..ربما لم تنعمي بهدوء من قبل كما أنت الآن، وحيدة أنت مثلي، ولا أحد يســـأل عن غيابك إن غبت غير هذا الذي واعدته أن يعيدك من حيث جئت، سينتظرك قليلًا، ثم ينصرف إلى طلبات توصيل أخرى.

البحث

الوقت الضـــائع بين حدثين: ثقيل وممل، وأنا أجالس الســراب الذي يطفو على وجه الفنجان.. فقاقيع صـــــغيرة، تذوب على شـــــفتي، كلما لامست الفنجان، وسحبت رشفة منه، هذا هو فنجان قهوتي الثالث، وأنا جالس؛ لتمضية الوقت المتبقي على موعد تلك السيدة.

نعم اعتدت الانتظـارات، حيـاتي كلهـا انتظـارات مختلفـة النكهـات والمفاجآت، منذ وعيت، وأنا انتظر عودة أمي من العمل؛ لتأخذني من بيت جدتي، عودتها من زيارة قصـيرة لأبي قبل أن نلتحق به،عودة أبي من سفره حاملًا حقائب وهدايا، الترقب القلق لرحيله ثانية حاملًا حقائبه، حتى إذا ما لحقنا به؛ ليلتئم شمل الأسرة، تبدّل طعمُ انتظاري.

بتُ انتظر زيارات الوطن ولقاء الأهل والصحبة، مراحل الحياة كلها انتظـارات للانتقـال..التعليم، التخرج، التجنيد، العمـل، كلهـا انتقـالات.. يســـبقها انتظار،وتأتي مفاجآت، أحيانًا غير متوقعة، وأحيانا صـــادمة كانتظاري لمصـــارحة أبي، ســـنوات انتظر الحقيقة ولا يبوح أبي حتى مللت.

الانتظار–الآن – بطعم مختلف، كالتوجّس من الضـــحك والفرح؛ خوفًا أن يقطعهما حزن، كاستشعار الخطر، وكالهدوء المشوب بالحذر.

أنهيت فناجين قهوتي، وحان الموعد المحدد لاستقبالها،نظري موجّهنحو بوابة البناية التي دَخَلَتْها، تمرّ الدقائق ببطءٍ شديد، نتجاوز الثالثة عصرًا ببضع دقائق.

لا بأس..أنتظر بضع دقائق أخرى، فللنساء أسباب تؤخرهن، لعلها تعجّل الحضور كي لا أتعرض لمضايقات من حراس وساكني العقارات، الذين لا يعلمون لماذا يطول توقفي هنا، ولو سألني أحدهم فلن يجد عندي مسوّغًا منطقيًا أتعلّل به، فماذا لو قلت لهم:إنني أنتظر سيدة ستأتي.

أدخن سيجارتي الخامسة، ولم تأت، يخرج الحارس يطالبني بالتحرك من أمام المبنى، فهذا وقت خروج شخصية هامة تسكن في نفس العقار، الآن عليّ أن أتحرّك من الشارع كله، كي يخرج السيد المهم، هكذا أبلغني الحارس، تحرّكت مبتعدًا عن المكان درت في شوارع جانبية، حتى إذا شعرت سيولة مرورية توحي برحيل موكب السيد، تحركت عائدًا، حاولت الاتصال بها كي اطمئنها بأنني في انتظارها، هاتفها مغلق، عدت للوقوف أمام المبنى متوجسًا من تصرفات سيدة غامضة.

كيف لسيدة بسيطة مثلها أن تزور رجلًا في عقار تسكنه شخصيات مهمة! من هذا الرجل الذي جاءته من بعيد؟ وكيف تعرفت عليه؟ كيف أمضت الوقت بصحبته؟هل كانت تعلم أن العقار، الذي تبيت فيه

يســـكنه أناس مهمون يتحركون بمواكب؟ وتفســـح لهم الطرق وتؤمن مسيرتهم من بدء التحرك حتى الوصول.

أحاول مهاتفتها مرات، ولكن هاتفها مغلق، انتابني القلق،ماذا لو أنها تعرضت لمكروه، ماذا لو كان الرجل الذي استقبلها صاحب سطوة، أليس من الممكن أن يمضـــي معها وقت المتعة، ثم يتخلّص منها حتى لا تفشي سره؟

هواجس كثيرة تحاصـرني، قرأت مرات عن هؤلاء الناس الســاديين، الذين يجدون متعة ولذة جنسية في تعذيب الأنثى التي يعاشرونها، ماذا لو كان الرجل الذي تزوره يعاني مرضًا نفسيًا، ربما يتلذذ بتعذيب الأنثى أو يعاني مازوخية تتطلب أن يتعذب سبًا أو ضربًا حتى تكتمل نشوته.

تراودني رغبة في تفتيش حقيبتها التي تركتها بالسيارة، أفتحها، أتفقد أشياءها، ليس سوى عباءة سوداء، وغطاء رأسها الذي خلعته، وغطاء وجه أسود مما تضعه السيدات المنتقبات.

تعجبت من وجود نقاب في حقيبتها،هي التي التقيتها بوجه مكشوف! لماذا تحتفظ بهكذا نقاب؟! وشـــغلني عن غيابها التفكير في مســـوغات وجوده في حقيبتها،وفيم تستخدمه، ولم؟!

أنا –الآن –أعذب نفسي بانتظار سيدة غامضة، وأعذب نفسي بالقلق عليها! هل أجد متعتي في القلق عليها؟

هل يعني ذلك أنني –أيضًا – أعاني عقدًا نفسية؟ وأبرر لنفسي ذلك بأن دوافعي الإنسانية، تجعلني أتحمل مسؤولية انتظارها، ومحاولة إنقاذها من مكروه، أو إبلاغ أهلها عن مكانها.

مرت خمسة وأربعون دقيقة الآن، منذ قدمت إلى هنا، ثم تحركت وعدت، وهاتفها لا يزال مغلقًا.

الآن..وجب عليّ أن أقوم، بما طلبته مني في حال تأخرها عن الموعد الذي حددته.

الحصار

"يا سيدي أنا مجرد بائعة متجولة، وهذه رخصتي فلماذا تحتجزونني وسط هؤلاء الناس الذين يعاملونني بقسوة، ذات مرة احتجزت فتحرر لي محضر تسول وأنا لا أتسول، أنا أعمل بائعة حيث لا أجد عملًا مناسبًا أتكسب منه رزقي.. أرجوكم لي أم مسنة تنتظر عودتي، وربما حدث لها مكروه في غيابي، أنا حقًا لا أعرف شـيئًا عن هؤلاء، ولا هم يعرفونني، يمكنك أن تسألهم".

هكذا بدلت صـياحي بكنيتي التي أعلنتها من قبلُ كمتسـولة، كنت أعلن أنني متسولة، حتى يخرجونني كما حدث من قبل، الآن أخرج لهم رخصتي كبائعة متجولة، ربما أنجو من هذا الاحتجاز، الذي أوقعني فيه سـوء حظي، وكلما مر بنا رجل من رجال الشـرطة صـحت له، لكنهم جميعًا يعنفوننا، ويذهبون وكأنهم لا يسمعون سوى أصوات لا تعني لهم شيئًا، حاولت أن أبجل أحدهم بنداء: ياحضرة الصول، فغضب وزجرني بشـدة، وعنفتني سـيدة منتقبة تقف بجانبي، نعتتني بالجهل لأني أتحدث عن جهل بالرتب، أنا حقًا لا أعرف مكانة كل منهم أو رتبته، لا أستطيع أن أفرق بين ضـــابط وآخر من خلال ما يحمل على كتفه من قطع نحاسية.

توقف رجل شرطة نهرني، وطالبني بالصمت في حضرة الباشا، أنا لا أعلم أيهم ذلك الباشا الذي يخشونه، لكنه منحني صياحًا جديدًا ربما أفادني.

- يا باشـــا..يا باشـــا..يا باشـــا أنا بنت غلبانة باجري على أكل عيشي، ياباشا أنا معرفش حد من دول ولا كنت معاهم.
- هات البت دي يا أمين
- آه وحياتك خدني عند الباشا ياحاج أمين..
- اخرسي يابت

قامت بعض النسوة المنتقبات بدفعي من بين زحامهن بصعوبة، كن بدينات وأنا نحيلة، أقف على قدم واحدة بينهن، تنفسـت حين أصـبحت خارج التخشيبة، لكنني شعرت برهبة المثول أمام هذا الذي يلقبونه باشا، بعد أن زجرتني واحدة من النســوة، لجهلي وأفهمتني أن هذا الذي الذي سأمثل أمامه ضابط كبير.

- تعالي هنا يابت
- حاضر..حاضر يا باشا
- فين بطاقتك؟
- مش معايا سـايباها في البيت يا باشـا عشـان ما تضـعش مني واتبهدل في تطليع بدل فاقد

- بس اسكتي
- حاضر
- ورِيني الكارنيه
- اتفضل

قلب في رخصتي، وصمت متأففًا ثم أشعل سيجارته ونفخ دخانها بضجر من دون أن ينظر نحوي، وأنا أقف أمامه مرتدية غطاء الوجه أنظر لأسفل حتى لا يعاملني بغضب وعنف، ثم بدا كمن نسي وجودي أمام مكتبه، وقام تاركًا المكتب وخرج، غاب قليلًا ثم عاد يصطحب شابًا ملتحيًا وهادئًا وغامضًا.

- شيلي النقاب يابت
- نعم
- إيه قلتلك شيلي النقاب خايفة من إيه؟
- هاخاف من إيه يا باشا؟ حاضر أشيل النقاب.. حاضر

حدث هرج في التخشيبة أوقفه الضابط بصيحة منه، انهال بعدها رجال من الشرطة ركلًا وضربًا في المحبوسين حتى صمتوا تمامًا.

كنت قد خلعت النقاب عن وجهي وخلعت العباءة التي أرتديها فوق ملابسي أثناء تجوالي، ووقفت بملابس عادية وحجاب رأس ملون.

- اللبس ده لزوم الشـغل ياباشـا، أنا لما اخرج بالبسـه عشـان لو معارفي أو جيراني شـافوني ما يعرفونيش، أنا باحافظ بيه على كرامتي وسط أهلي وباحافظ على أكل عيشي.

لم ينظر الضابط لي، بينما سأل الشاب الذي أحضره معه إن كان يعرفني، فنفى أن يكون قد رآني من قبل.

- لك حد يضمنك يابت؟
- ياباشا أمي وجوزها أو بنت خالتي، بس معرفش أوصلهم ازاي؟ خدوا مني التليفون بتاعي.

أمررجاله بإحضـار هاتفي، ووضـعه في شـاحن كهرباء، فدق فور فتحه، أمر الأمين أن يرد فرد.

- ألو مين حضـــرتك...مين؟ لا مفيش الاســـم ده، نعم.. لا ده تليفون واحدة في الحجز.

هكذا أنهى الأمين المكالمة، وأنا لا أعرف عن المتحدث شيئًا.

- ياعم أمين ليه قفلت ممكن حد يعرفني.

نهرني وتوجه للضابط بالحديث:

- ياباشا ده بيسأل عن واحد اسمه رضا، والأسامي اللي عندي مفيهاش رضا.

أمر الباشا الأمين أن يعطيني هاتفي لأطلب أحد أقاربي، فيضمنني لأخرج، وقبل أن يناولني الرجل هاتفي صـــاح الهاتف مرة أخرى فرد الأمين بإشارة من الباشا.

- أيوه في الحجز في القسم، تبلغ إيه ومين، ده حجز في القسم، عايز تبلغ تعالى وأعمل بلاغ بعد تمانية واربعين ســـاعة من الاختفاء.

أغلق الأمين الهاتف، وناولني إياه بإشارة من الضابط، كنت أود أن أتفقد الأرقام التي طلبتني أثناء احتجازي، وأعرف من كان يطلبني حين رد الأمين، لكن الضابط تعجلني أن أطلب أحًدا يضمنني، وأنا لا أرغب أن أخرج بواسـطة زوج أمي، فسـألت الضـابط هل يمكن أن تضـمنني سيدة وليس رجلًا، فوافق.

طلبت رقم ابنة خالتي مرارًا فلم ترد، ظللت أطلب هاتفها حتى صار خارج الخدمة، وقفت حائرة، هل أطلب أمي؟ أم زوجها؟

أخذوا هاتفي مرة أخرى، وأعادوني للتخشـــيبة، وأنا أصـــيح أنني سـأطلب أمي أو زوجها، لكن الضـابط كان قد تعكر مزاجه، فلم يستمع

لصــياحي، وترك المكان، وراح يخرج ويعود ويشــرب الشــاي ويدخن، ويتعامل مع القادمين والراحلين ويوقع أوراقًا، ويقابل أناسًـــا بترحاب وآخرين بغلظة، وأنا أجرب صياحًا آخر

- هاتو تليفوني وأنا اطلب أي حد يعرفني.

قلب الأم

هذا الدفتر الذي تضـــخم بفعل الأحداث، أكتبه من أجلك يا ابنتي، رحل الرجل الذي رفضـته أبًا، رحل إلى غير رجعة، كيف عاد وإلى أين رحل؟ لا أدري! لكنني أتمنى أن يصـدق حدســي، وأن يكون رحيله بلا رجعة، رأيتهم يقتادونه من هنا كالمجرم الهارب، ولا أعرف ماالذي اقترفه من جرم، كل ما عرفته أنه رجل عاش بأســـماء وكنيات مســـتعارة، واستخدمته الشرطة وأمنته للإيقاع ببعض المجرمين، هذا ما استطعت أن أحصـــل عليه في أيامه الأخيرة معي، كان يبدل ملابســـه بأشـــكال مختلفة، يزعم أنه يبدلها كوننا نعيش في بيئة قريبة من القرى، ويتخفف من أحماله لتسـهيل حركته بوسـائل المواصـلات، لم أسـأله عن شـيء، فظن أنه لا شـيء يعنيني وتخفف من حرصـه، ونسـي بعض أغراضـه، فدفعني فضولي للبحث.

فاجأتني الحقائق التي كان يخفيها، حتى اسم وجدي الذي عرفته به، ربما لم يكن حقيقيًا، وربما كان ذلك ســببًا لهروبه من نســبك له، وبعد عودته ترك الأمر كما هو، ولم يكن يشــعر بغضــب كونك باســم رجل آخر، أما أنا فدعيني أخبرك أنني ارتاح لنسـبك الرسـمي باسـم الرجل الذي تحملين اسمه بوثيقة ميلادك، أشـعر أنني لو رحلت تركتك بنسـب تفخرين به.

هـاهو ذا يومي يمر، ككـل يوم يمر وأنـتِ في بعـادك الاختيـاري وعملكِ الاختياري، الذي لا يتاح لي فيه أن أعرف أين أنت الآن؟

نهارك كله ســـعي وكد، وحيثما كنت فقلبي دائمًا حولك، أكتب لك آخر صــفحات يومياتي، قبل أن أتركها مكشــوفة، لا يهم –الآن – من سيقرأها، كل ما يهمني –الآن – أن أضع الحقيقة أمامك .

لا أخفي عنك أنني ســيدة لا تحســن الاختيار، ربما أنت لا تعلمين شـيئًا عن أسـراري، عن كل ما صـنعته بي الحياة، لا تعرفين لك عائلة حقيقية، كنت دائمة التسـاؤل: "هل كنت أصـنع تلك الأحداث بنفسـي؟ هل جرفتني أفعالي إلى نهر الأحداث الجاري، فخضـــته بكل مافيه من غثاء، أم أنني كنت أسـير لألتقيها، وقد كتبها القدر علي".. يا ابنتي لا تلومينني الآن فقد مرت ســـنوات عمري وهرمت، وأقفال القلب المغلقة على أسراره، آن الآوان لتفتح وها أنا ذي أتركها مشرعة أمامك.

هل باسـتطاعتي البحث عن هؤلاء الذين يشـاركونني تلك الأسـرار، لأكشــف لهم الحقائق؟ أأبحث عن حســين، عن راضـــي، عن أســرتي ليكونوا لابنتي سندًا لو تركتها؟ كيف ستستقبلين هذا الرجل الذي تحملين اسمه بشهادة ميلادك؟ وكيف يستقبلك هو؟

أنتِ التي تجوبين الشوارع؛ بحثًا عن عمل، وتلتقين الناس وتتمرّسين في المهن، ربّما التقيت أحدهم صـــدفة من دون معرفة، ربما التقيتهم جميعًا في وقت واحد.

أكتب لك – الآن – يا ابنتي، أيتها الفتاة الشـقيّة بقدرك وقدر أمك، أكتب عن أب لم تعرفيه حقًا،عن أب تعرفت إليه، وتنكّرت له،أكتب لك حين لا أتمكن من الحـديـث إليـك في هكـذا أمور، وأرجو أن تجـدي أسراري بين يديك حين يغيّبني الموت، ربما الآن، وربما غدًا.

بقي أن أقول لك أنني لم أكنْ أخدعك، حين أجبتك عن ســـؤالك المشروع في اختلاف اسم أبيك بين ما أناديه به، وما هو مسجل بشهادة ميلادك، قلت أنه وجدي هذا الاســم المعتاد، لكن حســين هو الحقيقة، حسـين هو الحلم الذي أنجبك من جسـد وجدي، ذلك الجسـد الذي عاد، فوجدك كمـا أنـت، لـذا لم تتقبلينـه أبـًا، ولكنني أعدك يـا ابنتي أنـك إن التقيت حســين يومًا ســيكون لك الأب الحقيقي، ابحثي عنه يا ابنتي، واتخذيه أبًا يكن لك عونًا.

بقايا يوم طويل

ستغيب شمس اليوم.. وأنا لم أزل رهين هذه التي واعدتني أن أعيدها من حيث أتت، مللت الصـــوت الذي يطل عليّ من هاتفها المغلق، وأزعجني صـوت الرجل، الذي أجاب على هاتف قريبتها، لم يعد أمامي سـوى اللجوء لقسـم الشـرطة، هذا القسـم الذي أخبرني به الرجل الذي أجاب على الهاتف.

أن تدخل قسـم الشـرطة بقدميك؛ فأنت لا تعرف عاقبة ما تفعل وما الذي ينتظرك، لكنني أفعلها، أنا ليس لدي ما أخشـاه سـوى أن يكون قد حدث مكروه لتلك السيدة.

أجلس أمام الشـرطي لأخبره الحقيقة، ليس على سـائق الأجرة سـوى تنفيذ الطلب، وأنا فعلت ذلك، هذا عملي الذي أعيش منه أنا وأسـرتي، ولست كاذبًا يا سيدي.

طلبت الرقم مرة أخرى، رد رجل يقول إنه بقسـم الشـرطة، أبلغني أن الهاتف الذي أطلبه يخص إحدى المتســولات المحتجزات لديهم، وهي مقبوض عليها ضـمن مجموعة من المناوئين للنظام في مظاهرة بوسـط البلد.. ماذا يعني ذلك؟ في هذا الأمر شيءغير واضح.. متسولة تسير

ضمن مظاهرة ضد النظام؟! ربما نظّم المتسولون والمتسولات مسيرة أو مظاهرة يطالبون بحقوقهم.

أقطع الطريق إلى قسم الشرطة بوسط البلد تاركًا، ذلك المكان الذي قضيت فيه ثلث نهاري، أمر بذلك النفق الذي شهد اشتعال شرارة الشهوة، تحضرني اللمسات ولا تحركني، أشعر أنني عدت في رحم النفق جنينًا، تتعسّر ولادته رغم ما يتيحه النفق من سرعة السير، تتضارب في رأسي الاحتمالات كلها من نفحة الحياة، وحتى شهقة الموت.. ماذا لو أن تلك السيدة منحها الله حياة جديدة تختلف عن حياتها السابقة، فتعيش في كنف الرجل وتتمتع بأمان.

لو أن أبواب السماء كانت مشرعة لها حين طالبتني أن أدعو لها؛ لتفوز بإعجاب الرجل، فيجزل العطاء، وكان هذا العطاء منحة سخية، توفر لها حياة كريمة، لو أن دعواتي المبهمة لها أمام ضريح الحسين فتحت لها أبواب السماء، لا أدري ماذا كنت أطلب من السماء لها، وربما تلاقت حيرتي بدعاء المتوسّلين حول الضريح.

أنا أشطح بعيدًا في أمنياتي، وكل ما أرجوه ألا يكون قد أصابها مكروه، حتى لو عادت كما هي.

أخرج من النفق لاتساع الطريق، تاركًا طالبي خدمة التوصيل، يشيرون لي، حتى وإن كان بعضهم على نفس الطريق.

المشـاهد في قسـم الشـرطة تثير في نفسـي التردد، هل أكمل حتى أصل إلى المسؤول أم أتراجع، قوة ما تدفعني أن أواصل، أسير خطوات بطيئـة في الردهـة الطويلـة، رغم كثرة النـاس الـذين يجيئون وغيرهم يذهبون،لا أجد من أسـتطيع سـؤاله ويجيب، الخارجون بعضـهم شـارد وبعضـهم غاضـب وبعضـهم بلا علامات شـعورية على وجهه، وهناك أيضًـا هؤلاء الذين يحملون على وجوههم علامات فارقة كالخارجين من حرب.

حتى هؤلاء الضـباط الصـغار الذين يسـيرون ثنائيات وثلاثيات وفرادى، تسـألهم ولا تجد منهم ردًا، أصـادف شـابًا ملتحيًا يسـير منفردًا، يرتدي جلبابًا قصـيرًا، يخرج من باب مواجه، أحكي له، وأسـأله إن كان يعرف إلى أي الغرف يجب أن أتوجه لأجد ضـالتي، يطيل النظر لي كمن يتحقق من وجهي، ثم يشـير لي على نفس الباب الذي خرج منه، أسير نحو الباب بتردد، أستجمع عزيمتي وأقرر الدخول.

يفـاجئني المشـهد، إنـه مكـان احتجـاز المقبوض عليهم، يكتظ بالمحتجزين، نصفه للرجالو النصَف الآخر مفصول بحاجز يضم نساءً منتقبات ومحجبات من أعمار مختلفة، أتجول ببصـري بين مكان السيدات، انظر الوجوه المكشوفة والعيون المتقدة في وجوه تستتر خلف نقاب، ترى من تكون صاحبة الرقم الذي أحمله؟

يســود الضــجيج وتتقاطع الجمل فلا أميز ســوى قول رجل غليظ يأمرني أن أغض البصر، أتلفت حولي لأجد من أتحدث إليه، فأصطدم بشرطي مسرع نحو الحجز، يتوقف ليسألني:

- أيوه عايز إيه؟ جاي لمين؟

أتلعثم قليلًا قبل أن أجيبه وعيناي زائغتان في المكان، يدفعني الشــرطي أمامه، يبعدني عن مكان الحجز، ويكلمني بلطف؛ عارضًــا خدماته بين الترهيب والترغيب.

- حضرتك أنا جاي بخصوص رضا، أنا اللي كلمتك في التليفون وقلت لي تعال بلّغ.
- يعني أنت عايز تعمل بلاغ؟
- يا حضرة الأمين أنا طلبت رقم كنت واخده من زبونة عشان لو أتأخرت أنقذها، رد عليا حد من هنا من القســم قال لي تعال بلّغ.

نظر الأمين لي نظرة مريبة، وصــمت طويلًا يتأمل وجهي، وأشــعل سيجارة نفخ دخانها بوجهي غاضبًا.

- هو يوم مش فايت من أوله، مش ناقص غير المجانين كمان.

حينها أيقنت أن حديثي غير مترابط، وأن الأمين يشـــك أنني غير متزن، واحترت كيف أوضـح له الأمر، حينها علت أصـوات المحتجزين واختلطت بأصـوات النسـاء المحتجزات، كانت هناك مشـادة بين الرجل المتشـدد وآخر يقف بالقرب من مكان احتجاز النسـاء، ادعت سـيدة من المنتقبات أنّه تحرّش بهم لفظيًا، فتوجّه الأمين إليهم زاجرًا مهددًا.

قررت أن أترك هذا المكان، وأعود إلى الشـــارع لأواصـــل طريقي وأفكر في وسـيلة أخرى للوصـول لهذه السـيدة، ماذا لو أنني انتظرت للغد، وحاولت الاتصـال بها أو بقريبتها، عزيت نفسـي أن ما أخشـاه قد يكون حدث بالفعل ولا جدوى من بقائي هنا.

تحركت خطوات ناحية الباب الذي دخلت منه، فاجأني صـــوت جهوري كالرعد من خلفي يأمرني بعنف أن أتوقف.

- على فين يا افندي هو دخول الحمام زي خروجه، فين بطاقتك؟

حينها يدخل الضـابط متجهًا إلى مكتب في نهاية القاعة، فيقودني الأمين إليه بعد أن تسلّم بطاقتي.

سيدة الصدفة

"قم يا سـيد الحكايا فالمرأة التي تسـامرها غارقة في الغياب" أشـعر أنني أحتاج إلى الهروب لاتساع الطريق، أترك المرأة النائمة في فراشي، وأقود سيارتي؛ عابرًا الطرق المزدحمة والميادين إلى وجهة غير محددة؛ تاركًا نفسـي لتشـابك الطرقات وتفرعها هائمًا بلا هدف، تتزاحم الأفكار في رأسي، فلا استطيع الإمساك بخيط واحد منها.

حضن سيدتي التي ربتني وأحضان النساء اللائي قابلتهن، يد السيدة التي كانت تمسك يدي في السوق وأياد كثيرة لامستني، عيون النساء اللاتي يعطين وعيون النساء اللاتي يأخذن.

حديث المرأة حين تبوح، وحديث أخرى تسـتدرّ العطف، أحاديث الابتزاز، والأحاديث التي تضمد الجراح، نظرات الانبهار ونظرات الهلع، لمسات الجرأة ولمسات الاكتشاف.

ثم أنا أمام امرأة تجمع كل ما سـبق لا أدري ماذا أفعل، مغلق بابي عليها لا تملك الفرار لو أرادت، لكنها اختارت أن تنام بأمان وهدوء.. أستسلم للطريق حتى أنني لا أعرف أين أنا، أكاد أصدم سيدة مسنّة تحمل على رأسها سلة مسطحة مغطاة بقماش بُليَ من كثرة الاستخدام، أوقف لها الطريق؛ لتعبر، أتوقف جانب الطريق،أنزل.

أتفحص المرأة، وأســـألها إن كان قد حدث لها مكروه، لكنها تجلس على الرصـيف، وتشـير لي ألا أنزعج، تومئ أنها بخير، أجلس بجانبها على الرصيف، أحاول طمأنتها،وأسألها إن كانت تشعر بالوجع.

أي وجع يا ولدي، ده حالنا كل يوم، نعدي الطريق رايح جاي، نعرف نقيس خطواتنا عليه، لكن سـاعات قوتنا تخوننا، وتلخبط حســاباتنا، والطريق مش بيقدر، ومالوش كبير غير ربنا، واللي مكتوب لـه العيشـــة بيكمل، واللي خلص دوره بيروح، قوم يا ولدي كمل طريقك.

أمسك يدها بحنو فيسري في شرياني شعور دافئ لا أتبينه، تتلقاني عيناها بومض غامض، بريق غاص في أعماق الحزن، وغطته غيمة لا تمطر، يغلفنا صمت حزين، أستيقظ منه ولا زلت ممسكًا بيدها، تسحب يدها بهدوء، أشعر كأن دمًا يسحب من وريدي.

- إلى أين تذهبين دعيني أوصلك

تشــير إلى شــارع فرعي، وتخبرني أنها من أهل المنطقة، وســتجد مركبة صغيرة (توكتوك) توصلها إلى بيتها.

إحساسي يلح علي أن أذهب معها حيث تمضي، أريد أن أتقرب إليها بشيء ما، تخبرني أنه لا يمكنني الدخول إلى شوارعهم الضيقة بسيارتي.

- سأترك سيارتي في مواقف السيارات بالطريق العام، وأركب معك، أود لو أشرب كوبًا من الشاي تصنعينه بيديك

صحبتها إلى حيث تذهب، وسط تعجب الناس من وجودي معها، هي أيضًا لم تبرر لأحد رغم تطفل الناس وفضولهم، وطوفان التعليقات والأسئلة وسط الأزقة وعلى أبواب البيوت والدكاكين.

في بيتها المكون من حجرة واحدة بمدخل بيت قديم شاهدت خيوط ماضيها تتشابك مع حاضرها في لوحة سريالية، على نافذتها تتسدل ستارة من خيوط مشغولة يدويًا تتشكل فيها رسوم طيور وأزهار، على الحوائط برواز ضم صورًا لها في أزمنة مختلفة، يتوسط البرواز الكبير صورة لصبي دون الخامسة.

المقاعد قديمة وكأنها أتت من متحف، جلست قبالتها على مقعد خيزران، ناولتني كوب الشاي، وأنا أنظر في عينيها، وأفكر كيف أترك لها مساعدة مادية، يبدو أنها قرأت في عيني ما يجول بخاطري، أَخْرَجَتْ من صدرها كيسًا من القماش القديم.. وضعت ما به على طاولة قديمة، بضعة عملات نقدية معدنية وورقية من فئات مختلفة،

ربما كانت حصـــاد يومها من الكد والعرق، أخبرتني ألا أفكر في أن أغدق عليها عطفًا ماديًا، فهي تعمل، وتكسب قوتها، ولا تتسول.

ما الذي أبحث عنه في تلك السيدة المسنة التي وضعتها الصدفة على طريقي؟ أنا إنسان صنعتني الأقدار، تفاصيل حياتي كلّها قدرية، لذا أنا أؤمن أن وراء كل صدفة قدر، سيتدخل في تفاصيل الحياة ويضع علاماته.. مثل تلك الســـيدة التي تجلس قبالتي لا تحتاج إلى أســـئلة واستفسارات ومحاولات للخوض في تفاصيل حياتها، لا تحتاج سوى الصمت والتأمل وأنت ترتشف شاي صدفتها بهدوء، لتسمع بوح النفس في حكايا تفيض عفوية.

انســـاب صـــوتها من أعماق الزمن الذي خط تجاعيده على وجهها وجبينها المتغضّـــن، وكأنّها ســـكتت دهرًا بلا حديث، ثم تفجرت بوحًا يختصر مسافات الزمن في جمل تعريفية، لا تحمل شجن التباكي وثقل الهموم، ولا تسعى لاستدرار العطف، يسري صوتها من المنبع بهدوء؛ ليعبر السمع، ويتغلغل في الضمير.

أنا سيدة وحيدة، لاعائل لي، لا زوج ولا ابن، لست من هذا المكان، وإنما جئت أعيش فيه بعد أن مررت بظروف صـعبة، حتى اسـتقر بي الأمر أن أعمل بائعة خضروات.

أذهب كل يوم مبكرًا إلى بائعي الخضـروات الكبار في سـوق كبير يسـمونه سـوق العبور، أحمل بعض ما لديهم من الخضـروات والليمون، وأركب في صـندوق سـيارة نصـف نقل مع بعض النسـوة من البائعات الأخريات، ينزلنا السائق كل واحدة حسب مقصدها، ويعود ليجمعنا في نهاية اليوم فيعيدني حيث وجدتني أعبر الطريق.

نعم كان لي زوج وبيت بالقرب من نفس المكان الذي أفترشـــه لبيع خضرواتي، أفقت ذات مساء من غيبوبة مرضية، لم أعرف طول الزمن الذي استغرقته، لأجد نفسي وحيدة.

الآن لم يعد هناك من يعرفني سـوى القليل من كبار السـن، الذين يتغاضـون ويتناسـون، هم الآن ينادونني باسـم أم الغايب، وأنا لا أبالي، وهنا حيث أعيش ينادونني باسـمي فقط (سـيدة)، ليس لي إخوة هنا، أما أخواتي فقد تفرقن بعد الزواج كل منا في بلدة، وانشغلت كل واحدة ببيتها وأسـرتها، وهذا الغائب الذي أُكنّى به (أم الغايب) فهي تسـمية جاءت على لسان الناس بعد ضياع ولدي، وانفصالي عن زوجي، قيل لي أنّه طلقني، وتزوج بأخرى تأتي له بولد آخر.

سـاعدني أهل المروءة ببعض المال، فاسـتثمرته هكذا حتى أواصـل الحياة، وها أنا أعيش بين هؤلاء الناس، الذين يعاملونني بلطف حينًا وبغلظة أحيانًا، ولا تشغلني طبائعهم.

يبدو أنني أسرفت في الحديث حتى أثقلت عليك، لا تؤاخذني، أنا لا أتحدث كثيرًا رغم الزحام الذي اجتازه يوميًا، والأحاديث كلها لا تخرج عن شأن البيع والشراء والانتقال.

- الآن قل لي من أنت واذهب لتواصل طريقك.
- أنا سيد اسمي سيد.

الفخ

- حازم حسين المصري، عايزني اقتنع إنك جاي تبلغ عن تأخر زبونة ركبت معاك وعطتك رقم قريبتها عشان لو حصل لها حاجة!
- دي الحقيقة يا باشا.

الضابط الذي يسألني لا وقت لديه للتعجب من أمر مختلف، وذلك لا يعني له سوى تقليب الأمر على أوجه الشك، والتحقق من الشخص الذي يمثل أمامه، هكذا أقف أمام الضابط الذي أسلمني له الشرطي ولا أعرف هل سأنهي الأمر، الذي جئت من أجله، أم سأبقى هنا طويلًا يتحقّقون من خلو أمري من الجرائم.

- يا سيدي أنا أبحث عن تلك التي أحمل رقم هاتفها، ربما ظهورها يحل لغز السيدة الأخرى.
- تقول أن اسمها رضا ذلك ما أبلغتك به المرأة الأخرى،وليس لدينا بالحجز واحدة بهذا الاسم.
- لكن الهاتف المسجل لدي رد عليه شرطي أخبرني أن هذا الهاتف لمتسولة محتجزة هنا.

طالبني الضـــابط أن أطلب رقم الهاتف المســـجل معي في الورقة، فطلبته حينها جاء أمين الشرطة يحمل الهاتف.

قال لي إنه هاتف متسولة تدعى صـابرين وليسـت رضـا، كنت أود أن يسمح لي الضـابط بالانصـراف، فأعود إلى بيتي و أفكر في وسـيلة أخرى للاطمئنان على الســـيدة الغامضـــة أهاتفها غدًا أو بعد غد أو تأخذني المشاغل وأنساها.

هممت بالوقوف اســـتعدادًا للانصـــراف الذي انتظر أن يأمرني به الضابط بعد أن تحقق من بطاقة هويتي، لكنه فجاة طلب إحضار الفتاة التي تدعى صابرين.

جـاءوا بفتـاة لا تكف عن الصـــيـاح معلنـة أنهـا لا تعرف هؤلاء المحتجزين معها، كانت تكمل توســلها للضــابط حتى يخرجها أو يترك لها هاتفها، لتكرر طلب من يستطيع أن يضمنها، نهرها الضابط وأمرها أن تصمت.

- تعرفي الراجل ده يابت
- أول مرة أشوفه والله أنا معرفش حد هنا

أخبرها الضابط أن سيدة أخرى أعطتني رقم هاتفها، زاد الخوف على وجه الفتاة، وهي تؤكد أنها لا تعرف أحدًا، وأنا بعد صخب الفتاة وخوفها

أنتظر أن يأمرني الضـــابط بالانصـــراف، لكن يبدو أن دخول مركز للشرطة رغم معاناته يعد أمرًا أهون من انتظار الخروج منه.

حسم الضـابط الموقف بسؤاله لي: منذ متى وأنا أعرف السيدة التي أعطتني رقم الفتاة، مللت من تكرار الحكاية، لكنني أخبرته أنني ألتقيتها أمس وواعدتني أن أمر لأعيدها من حيث أتت، وقبل أن يداهمني سؤاله عن مزيد من التفاصـيل قلت له أني أوصـلتها من الدقي لمنطقة مصـر الجديدة ميدان (تريومف)

- اسمها إيه الست دي؟
- عزيزة ياباشا هي قالت اسمها كده مش عارف ده اسمها حقيقي ولا إيه!

بدا الهلع على وجه الفتاة وصاحت بخوف تتساءل ماذا جرى لعزيزة، دق الضـابط على المكتب أمامه، وقف بعصـبية وتوتر، أشـعل سـيجارة ،وتركني واقفًا أمام الفتاة، وراح ينفث دخانها أمام مكان الاحتجاز الذي هدأ ضـــجيجه، وأنا أقف أمام الفتاة لا أدري هل أحدثها فتنكشـــف لي بعض التفاصـيل، أم انتظر حتى لا أغضـب الضـابط، كانت الفتاة أجرأ مني كونها لا تنتظر الأسوأ، فاجأتني بحديثها.

- أنا منتظرة حد يضمني عشان أخرج تضمني وبره القسم تعرفني حصل إيه لعزيزة؟

أعطيتها إشارة بعيني تعني الموافقة، خرج الضابط من القاعة ثم عاد يصـطحب أمين الشـرطة، وهو يحمل دفتر كبير وبطاقات هوية جلس على طاولة قريبة.

- ياباشا أنا أضمن صابرين عشان تخرج تدور على بنت خالتها.

أشـار الضـابط لأمين الشـرطة أن يكتب اسـتيفاء الضـمان لخروج الفتاة بدفتر الأحوال، حينها وضـع أمين الشرطة بطاقتي ورخصـة الفتاة أمـامـه، ثم توقف عن الكتـابـة، ونظر لي بشـــك، ونـاول البطـاقتين للضابط.

- صـابرين حسين المصـري، حازم حسين المصـري؟ أنتوحكايتكوا إيه؟!

اللقاء بلا روح

اليوم بطيء وممل، كنت أود قضـــاءه خارج البيت، لكن أن ينتهي بالذهاب إلى قسم الشرطة، لضمان خروج ولدي هذا ما لم أكن أتوقّعه، ولم يقل لي حازم ابني ما الذي أوصله ليد الشرطة، لذا أنا أسير أقلّب الاحتمالات كلّها، كي أفترض حلولًا.

المكان من بيتي إلى قسم شرطة الأزبكية ليس بعيدًا، ولكنه مزدحم بوسائل المواصلات المختلفة والمارة والبائعين من كلّ صنف، أن تصل إلى هذا المكان على قدميك أسهل من استخدام وسيلة تستهلك الوقت في التكدّس المروري والتوقف ومعاودة السير، لكن السير – أيضًا – ليس مأمونًا وسط هذا الزحام.

أتوقف كثيرًا، وأتردد في العبور، حتى مر بي شـــاب من الجيران يعمل على مركبة صـــغيرة بثلاث عجلات؛ لنقل البضـــائع الخفيفة بين التجار، يســألني عن وجهتي، ويصــرّ الشــاب أن يحملني معه، حيث يتوافق مع سيره بالقرب من نفس المكان؛ لجلب بضائع، ليس لي مكان في المركبة، فالشـــاب يركب على العجلة الأمامية للقيادة، بينما في الخلف صندوق البضائع، ساعدني الشاب حتى صعدت لأجلس فيه.

جلست القرفصاء في الصندوق الخلفي واضعًا رأسي بين ركبتي، لم أكن احتمل رؤية الزحام من موضعي هذا، لا أدري كيف طال الطريق القصير للوصول إلى المكان، حتى تحمل طول شريط الصور والذكريات، التي راودتني.

جابت ذاكرتي صور المركبات كلّها، التي وطأتها، وتنقّلت بها، واجتزت الموانع الصعبة، صور التفاخر والعزة ونحن نشير بعلامات النصر بعد العبور من فوق دبابة، لاتزال مزارًا بالمتحف الحربي، صور السيارات التي تنقلنا في أول إجازة لنا بعد النصر، والناس يشيرون لنا بمحبة، كانت قد بدأت تداهمني صور الطائرات والمطارات والسفر، حين توقّف الشاب أمام قسم الأزبكية وأنزلني.

أمام الضابط الشاب، كان عليّ أن أجتاز توبيخه ولومه على ترك بنتي وسط المخاطر، وأنا رجل محارب قديم، كما ذكرت له في تقديمي لنفسي، كان عليّ أن أستمع له بصمت، وأقدم بطاقة هويتي؛ لأضمن خروج ولدي، وتلك التي تحمل اسمي، وأن أبعد عن وجهي كل تعبيرات الدهشة والتعجب من الصدف، وأتقبل الأمر بهدوء.

في الطريق إلى قرية أبو النمرس، حيث بيت الفتاة خيم علينا الصمت، لم أتحدث أنا ولم أسأل، ولم تسألنا تلك التي جئنا بها من قسم

الشرطة عن تفاصيل، ولم نسألها،أما حازم فبدا كأنه أنهي معركة أربكته كثيرًا، وخرج منها بصمت غامض.

كيف سـألتقي سـميحة؟ ذلك هو السـؤال الذي شـغل تفكيري طوال الطريق وجعلني صامتًا، أنا أفترض المفاجآت واستعرض تفاصيلًا..ربما تحدث، لا يمنع ذلك من مرور بعض الذكريات والأحداث الماضـــية، ومن وقت لآخر كنت اختلس النظر إلى الفتاة الجالسـة بالمقعد الخلفي، هي صورة من أمها سميحة، لذا لم تمنحني ملامحها فرصـة تتبع الشبه بينها وبين من أنجبها.

الشوارع تضيق وتتسع، والمركبات تتزاحم وتبطئ، ثمّ تعود مسرعة، والناس يعبرون الطرق بلا حذر.. يعتمدون على مهارة الســـائقين في توقع مفاجآت الطريق.

على الأرصفة تجلس بائعات من الأعمار كلّها، تعرضن بضائع من كل الأصـناف، بعضـهن يجتزن الزحام، في مسـافات التوقف لعرض ما لديهن، في الإشـارات يقف صـبية وشـباب في انتظار توقّف السـيارات؛ لتقديم خدمة مسح الزجاج الأمامي لقاء مبلغ زهيد، وهناك باعة المناديل الورقية، وغيرهم.

دخلنا نطاق محافظـة الجيزة، هنـاك لافتـة كتب عليهـا (حي جنوب الجيزة يرحب بكم) هل هي نفس اللافتة التي مررنا بها أنا وسميحة قبل

ولادة تلك الفتاة؟ لا أدري لكني لا أرى البيوت الصـغيرة التي تقف على حد الطريق بين المدينة والقرى، لم يتبق منها سوى القليل المغلق، الذي لا تبدو عليه علامات الحياة، بينما تجمعت مسـاحات بعض البيوت الصغيرة إلى بعضها، وتطاولت لأعلى، فأصبحت عمائر عالية، يحتل طوابقها الأرضـية معارض فخمة لأجهزة وآليات وسـيارات، ومن عجب هذا الطريق المتسع الذي يصل مدن الصعيد بالقاهرة أن يظل عشوائيًا، تسير فيه كافة المركبات والكائنات جنبًا إلى جنب، قطع شرودي صوت الفتاة نطقت أولى كلماتها منذ خروجنا من قسم الشرطة.

- خلاص قربنا هتدخل من أول شارع يمين.

فتحت لنا الفتاة بابًا البيت فدخلنا، البيوت روائح ونبض همس وحياة، وهذا البيت الذي تسكنه سميحة مرتب وأنيق رغم بساطته، تكسوه نفس الرائحة، التي كانت تفوح من بيوتنا ونحن صـغار، رائحة الطبخ المختلطة بروائح العطر، وهمس موسيقي لا تعرف مصدره، وحين تتبعه لتتبين نغمات أغنيته، يغيب ويحتل فضـاؤه أصـوات الباعة ونداءات النسوة وضجيج الصبية.. على الطاولة التي تتوسط المجلس وضع دفتر قديم ومضاف إليه أوراق جديدة، يجاوره قلم.

طالبتنا الفتاة أن نجلس، ريثما تأتي أمها من الداخل،توقّف بنا الزمن عند تلك اللحظة، حازم غارق في تأمل دهشـــة الصـــدفة، وأنا لا أملك ترتيب توقعاتي للحظة القادمة.

وكأن الأوراق الســـاكنة في الدفتر تناديني، وأنا أتهرب من إلحاح فضولي لفتح تلك الأوراق، حتى خانني صمودي ففتحت، قرأت السطور الأخيرة من آخر صـــفحة، ولم أكمل حين جاء صـــوت الفتاة تصـــيح وتبكي.

توترات معتادة

"هكذا جئت أنا حازم حسين المصري أحمل التوترات التي خطها زمن لم أعشه".. خضنا أيامًا عصيبة بعد موت السيدة سميحة، ظل أبي في غرفته منعزلًا بعد عودتنا من مراسم دفنها بمدافن عائلتنا ظلّ حريصًا على تلك الأوراق، التي حملها معه من بيت السيدة سميحة، يقرأها في غرفته ثم يخفيها إذا خرج لأمر ما، وتلك الفتاة التي أصر أبي على حملها معنا أيضًا، تحيا بيننا في صمت، لا أدري هل نسيت ابنة خالتها المختفية أم شغلها موت أمها وحزنها، أخي الأصغر لا يعلم شيئًا عما يحدث ولا يسأل.

عشت أيامًا لا أخرج للعمل على السيارة، لا أدري كيف أخرج من جديد لأحمل الناس من مكان لآخر.. هؤلاء الذين يحملون أسرارهم في صدورهم كقوارير الزجاج، لو اصطدمنا بها؛ لتهشمت ونالنتنا بعض شظاياها.

اليوم الذي نفضت فيه سكوني وتحررت من قيود نفسي، وقفت أمام مرآتي وتجردت من ملابسي، لم أر سوى رجل تزاحمت داخله التفاصيل المتناقضة، أنا ابن تلك السنوات المتسارعة الأحداث، وريث هؤلاء

الآباء، الذين صـــدموا في إنجازاتهم، ولم نأت نحن بلمحة تشـــابه بيننا وبينهم، هل نحن أسعد حظًا منهم؟

عدت لفراشـــي كما أنا والبيت غارق في سـكونه، واسـتدعيت طيف تلك التي غابت، كانت الخيالات تذوب كلما ومضـــــت، ولم يبق منها سوى امرأة تستجدي الدعوات لتنعم بوقت سعيد وعطاء.

ليس أمامي إلّا أن أغتســـل وأخرج؛ لأبدأ يومًا جديدًا، لا بأس من حمل الناس وحكاياتهم، في البيت معي –أيضًـــا – تســـكن حكايات بعضها تكشف لي وحكايات أُخر لا تزال طي الكتمان.

على الباب قبيل خروجي واجهتني صـابرين أو رضـا كما يدعونها، أبلغتني أنها تلقت رسالة من ابنة خالتها عزيزة، تخبرها أنها بخير.

في الشـــارع لاحظت أن أم الغايب بائعة الخضـــروات والليمون لا تجلس في مكانها، لا أدري ما الذي جعلني أنتبه لغيابها على الرغم من أنني في كثير من الأيام، أروح وأجئ من دون أن أنتبه لها، المرأة التي اعتادت أن تأتي في موعد منتظم، وتذهب في وقت محدد، ولم تتأخر يومًا عن موعدها، اليوم لا تجلس في مكانها، شـــغلني الأمر وأنا في طريقي إلى إخراج السيارة من مكمنها، حتى أدرت المحرك وتحركت.

أواجه الشوارع المزدحمة والطرقات الواسعة السريعة،والصبية، بائعي المناديل الورقية والمعطرات عند الإشـــارات، والبنات عارضـــات لوازم الهواتف والورد وأشياء أخرى،وطالبي خدمة التوصيل مختلفي الأشكال والأهواء.

- مصر الجديدة يا هندسة

هكذا أوقفتني ســـيدة في العقد الثالث، كدت ألبي طلبها، لكنني ترددت في آخر لحظة قبل أن تضع قدمها في السيارة، واعتذرت.

خاتمة

ها أنا ذي أجاهد أن أعود إليكم من بين زحام السطور التي شكلت الحكايات، وهؤلاء الذين اشتبكوا معي رافضين مصائرهم، غاضبين من تداول أســـرارهم في رواية، مهددين أن يظهر من بينهم يومًا من يكتب عني مفشيًا أسراري.

أنا السيدة التي تعيش ضمنيًا، ترسم الشخوص، وتلحق نفسها بشيء منهم، تدخّن كي تستلهم من سحائب التبغ شغف الحديث، تكتب في الشرفة، كي تحيا وسط الضجيج المؤنس، تسير في الأسواق من دون هدف، تبتاع بعض الصغائر، تشاكس بائعًا.

أنا تلك السيدة، التي تمزّق تاريخها بين حلّ وترحال، عشت أشكال الحيوات، التي تعاش بتجاربها الحلوة والمرة.

أنا تلك الطفلة القادمة بعد الاكتفاء من إنجاب البنات، وتلك البنت التي أحبت حين يكون الحب ترفًا، وأنا واحدة من ســيدات كثر يخرجن كلّ صــباح للعمل، ويعدن لرعاية أســرة، هنّ اللواتي يغدقن في العطاء بلا مقابل.

وأحيانًا، أكون أنانية أوشـــريرة، أو كما يراني من لا يعرفني حقًا، محاربة عنيدة حينًا، ومســـالمة أحيانًا أخرى، أنا ســـيدة المتناقضـــات كالبحر، الذي أعيش بجواره، وأحبّه وأخشاه.

وأولئك الغائصـــون في متن النص الذي قرأتموه، هم أنتم كما رأيتكم وعايشت حكاياتكم، فسلام عليّ حين أغوص في أعماق بحركم المتقلب، وســلام عليكم قبل أن تنبض بكم أوراقي، وســلام عليكم بعدما تشـكلتم، سلام على الراوية والرواية.

تمت

سعدية عبد الحليم، الإسكندرية

2020/8/14

محتويات الرواية

تعليق قبل البدء 4
فاتحة السرد 11
على الطريق 13
رضا 35
عزيزة 51
حسين المصري 64
سميحة 83
أوقات عزيزة 95
وقت حازم 105
جدال النفس 109
سيد الحكايا 113
البحث 119
الحصار 123
قلب الأم 129
سيدة الصدفة 138
الفخ 145
اللقاء بلا روح 149
توترات معتادة 155
خاتمة 159

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر

دار نشر – دراسات – استشارات – دورات تدريبيّة
44 شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية، مصر
موبايل : 01018081590 هاتف : 034830903
بريد إلكتروني : levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني : www.levantcenter.net
مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشريّة
ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته
ب ض : 545/584/507 – س ت : 9882

يهدف المركز لإقامة دورات وورشات عمل وندوات ومحاضرات ويستثمر في تطوير الموارد البشريّة وتنميتها، ويقيم دورات ثقافية وتعليمية متنوّعة، ويهتمّ بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافيّة وعلم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثيّة، والاهتمام بأصحاب المواهب في الكتابة السرديّة والمسرح والسينما، وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًّا شاملاً نشاطات المركز كلّها، علاوة على إتاحته تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة مجانيًّا، وعبر سوق كتب إلكترونيّ وورقيّ للجديد بأسعار منافسة، كما أنّ المركز ينشر المقالات والكتب ورقيًا وإلكترونيًّا وفق عقد مع أيّة مؤسسة أو دار نشر أو مؤلّف إفراديًّا.